فاتح القسطنطينية

السلطان محمد الثاني

تأليف
محمد محمد إبراهيم مصطفى




دار الهدى للتجليد الفني
القاهرة

فاتح القسطنطينية
السلطان
محمد الثاني

تأليف
محمد محمد إبراهيم مصطفى

رقم الإيداع ١١٦٢٥ /٢٠٠٨

***

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إلى أبنائنا من الجيل الصاعد، أقدم هذا العمل الروائى المتواضع، لتلك الشخصية العظيمة (السلطان محمد الفاتح) وقد كان وراء تصويب قلمى لرصدها.

تلك الدوافع :

أن هذه الشخصية التاريخية، أحدثت حدثاً، غَيَّر تاريخ العالم بأسره، من يومه وإلى الآن – فتح القسطنطينية "٨٥٧هـ –١٤٥٣م" فتحول التاريخ العالمى من العصر الوسيط بظلماته ، إلى العصر الحديث الذى فيه الإسلام ، صار واقعاً عالمياً على الأرض، يشع نوراً على أوروبا التى جهلته.

أن هذه الشخصية العظيمة، لم تنل حقها فى التاريخ بروزاً، رغم ما أحدثته من إعجاز فاق الخيال بحقيقته، حين نرى السلطان الشاب، الذى يُسقط أعتى حصون الدنيا فى زمانه، يتخطى بثبات، وإيمان، وعزم لا يلين خوارق العادة وصولاً للهدف.

أن هذا السلطان المؤمن، استحق عن جدارة أن تصطفيه الإرادة الإلهية من دون الأمراء، ومن دون الخلفاء، ومن دون القادة عبر الزمان ، لأن يكون بشارة الرسول، فينال الثناء والإشادة من رسول الإنسانية ﷺ حين قال: "لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش".

فى هذه الشخصية الثابتة ، سنرى من خلال محطات سيرته، منهج النجاح وعبور المستحيل، وكيف ننحى الخوف،والإخفاق، والتردد من حياتنا، لنكون دعامة صلبة للدين والوطن ، وللأمة .

وفى الختام نقول: إن أمة ينتمى إليها هكذا عظيم، هى أمة

ولادة، تفاجئ الدنيا بأمثاله حين اقتضاء الحاجة، أو إذا عدا علينا العادون، أو إذا ادلهمت الخطوب، فليس سواناً من يُنْجب محمد الفاتح.

والله ولى التوفيق

محمد مصطفى

الإسكندرية فى ٢٢ ربيع آخر ١٤٢٩هـ

الموافق ٢٨/٤/٢٠٠٨م

مدرسة السلطان الفاتح

(١)

يحل شتاء عام (١٤٣٩م) على مدينة – أدرنة – عاصمة الدولة العثمانية، وقد خيمت عليها نذر الحرب، بسحابتها القاتمة، فكست غيومها القصر الهمايونى، قصر السلطان العثمانى، والذى يقبع فى زهو وشموخ، فى قلب (أدرنة) بميدان الصحن.

فإشارات الحرب تداهم رجل القصر المهيب – السلطان مراد الثانى – يواصل الليل بالنهار، وفود تودعه ليستقبل غيرهم، الوزراء،والقادة، ورجالات الصف الأول فى البلاط، يلتفون حوله، لرصد كل جديد بشأن المواجهة المرتقبة.

وفى لحظات انهماك القوم، يدخل عليهم مرشد الخاقان (أى: مفتى الديار) شيخ جليل فى الستين من عمره، يرتدى ثياب علماء الدين الأناضوليين، يغطى صدره قميص أسود يرتديه فوق جلباب أبيض، وفوق رأسه عمامة بيضاء، يتدلى طرفها من الخلف يشرق وجهه ذو اللحية البيضاء الكثة حبوراً ووقاراً، فارع الطول، تعلوه هيبة العلماء، وعلى فوره يقوم السلطان مراد الثانى من مكانه مرحباً به فى جلل جم، وكذا مجلس السلطان، الكل رحب به، ويضع السلطان يده فى يد الشيخ –آق شمس الدين – ويسيرا فى ناحية منزوية عن جمع المجلس المنعقد، ويدور الحوار بينهما.

قال السلطان: كيف حال ولدنا الأمير محمد تلميذك المطيع.

قال الشيخ آق شمس الدين: يفوق أقرانه، خاصة فى درس التاريخ.

قال السلطان وقد كساه الحبور والبش: وهذا ما أردت سماعه، فأنت تعلم يا شيخنا ما نحن مقبلون إليه، فنذر الحرب قريبة، فضلاً عن مشروعنا الكبير لفتح القسطنطينية عاصمة الروم، والتى أستعصت على أجدادنا، ودرس التاريخ برفقة العلم الشرعى والعلوم

المادية التطبيقية، هم من يحقق الهدف المنشود وتجاذبا أطراف الحديث، وتطرقا لشؤون عدة، دائماً ما يستلهم فيها السلطان المشورة الناجعة من الشيخ الجليل.

وفى صبيحة اليوم التالى، يسرع الأمير الصغير ابن السابعة محمد بن مراد الثانى يسرع الخطى، ليأخذ مقعداً متقدماً فى هذا الفصل الدراسى، ضمن فصول مدرسة القصر السلطانى، التى تضم بين جنباتها صفوة الطلاب من أبناء العائلة – آل عثمان– وأبناء الوزراء ومسئولى البلاط، تأهباً لدرس الشيخ آق شمس الدين، وإن هى إلا لحظات، ويدخل الشيخ والمعلم الوقور على تلامذته الذين يعدهم، ليكونوا قادة الغد، وبعد صمت خيم على الجميع.

قال الشيخ: درسنا اليوم أيها الأمراء الصغار، غاية فى الأهمية، كونوا على حال إصغاء تام. فهو ذو علاقة بالدين، والتاريخ، والحاضر، وما نحن مقبلون عليه، إنه يُعنى بتلك المحاولات التى قام بها المسلمون، منذ الفتوح الأولى، حتى عصرنا لفتح القسطنطينية، لنستخلص منها العبر فى معركتنا القادمة.

وابتهج تلاميذ الفصل أيما ابتهاج، وراحوا ينظرون لبعضهم، ثم لمعلمهم الذى شوّقهم لسماع درس، هو من أعظم دروس التاريخ، التى تعنى هؤلاء الأمراء الصغار.

وقف الشيخ الجليل وجمع شوارد ذهنه، ليصوب درسه فى عقول وصدور الصغار، الذين انتابهم صمت ، وخشوع لسماع ما شوّقهم لسماعه معلمهم :

(جاء الرسول ﷺ ووحد خطاب العرب، وجمع كلمتهم، وحدد لهم هدفهم الذى من أجله اصطفاهم الله ممن سواهم،لنشر دينه الجديد (الإسلام) إلى أبعد مدى يستطيعه، فأوفد الرسول رسله إلى الفرس والروم، ولم تلق دعوته صدى، بل صادفت إعراضاً فى بعض الأحيان، وامتهاناً لرسله، بل وإرسال إشارات تهديد للمسلمين فى بلادهم، ورحل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وترك خلفه خلفاء من

خلصائه، قاموا خير قيام بما خط لهم، ففى عهد أبى بكر انطلق المسلمون فاتحين فى جبهتين فى آن واحد – الفرس ،والروم – وهما أكبر إمبراطوريتين عرفهما العالم آنذاك) ويقف الشيخ آق شمس الدين، برهة يلتقط فيها الأنفاس، والتلاميذ فى شدة إنصات، ثم يعاود حديثه.

(لقد حرص خلفاء الأمة على تحقيق نبوءة الرسول فى فتح معقل الروم القسطنطينية؛ حيث قال ﷺ: "لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش" [1]، ففى عهد خلافة معاوية بن أبى سفيان، انطلق ابنه يزيد (٤٩هـ)،وكان برفقته الصحابى الجليل – أبى أيوب الأنصارى – ومنيت الحملة بالفشل، وتوفى أبو أيوب الأنصارى فيها، ودُفن عند أسوار القسطنطينية، وحاول المسلمون مرة أخرى فى عهد الخليفة الأموى – سليمان بن عبد الملك – حين أرسل أخاه – مسلمة (٧١٧م) على رأس حملة، لم يكتب لها النجاح أيضاً، وتواصلت الحملات صوب الهدف، ففى عهد الخليفة العباسى – هارون الرشيد – (٧٨٢م)، انطلقت محاولة ثالثة لفتحها، ولم تتمكن، وفى عهد الخليفة العباسى – المأمون – (٨٣١م)، انطلق بنفسه، بيد أن المنية وافته فى الطريق، فعادت الحملة أدراجها إثر وفاته.

ومرت قرون ولم ينس المسلمون هدفهم، فقامت محاولة أخرى، قام بها السلطان العثمانى جدكم يا أبنائى – بايزيد الصاعقة – حين ضرب حصاراً على القسطنطينية وكان قاب قوسين أو أدنى من النصر (١٣٩٩م) لكن إرادة الله لم تشأ.

ذلك أن المغول اكتسحوا دولة – با يزيد الصاعقة – الدولة العثمانية المجيدة مما اضطره لفك الحصار على القسطنطينية، تلك هى محاولات المسلمين ايها الأبناء لفتحها، وأنتم قادة وشباب الغد. عليكم أن تضعوا هذا الهدف نصب أعينكم لعل الله يجعل الفتح

---

(١) رواه أحمد فى مسنده، والترمذى فى السنن بإسناد حسن صحيح.

على أيديكم).

وختم الشيخ آق درسه ونظر إلى تلاميذه، فإذا بهم كانوا قد سُحبوا لأعماق التاريخ، ثم رُفعوا إلى السحاب لآفاق الحلم، الحلم الذى ترسخ كما يبدو الآن فى أذهانهم، بعد سِماعهم هذا الدرس القيم.



حكاية العثمانية

(٢)

فى إحدى شرفات القصر الهمايونى، يقف السلطان مراد الثانى وبجواره زوجه – خديجة حمزة اسفنديار – ينظران إلى ولدهما محمد وهو يلهو مع الحراس، ويأمر السلطان مربيته –أم كلثوم هاند خاتون– بإحضاره.

ويأتى مسرعاً، وتلتقطه أمه من يد المربية بحضن دافئ، ويبتسم السلطان مراد ويخلع الأمير محمد نفسه من عناق أمه، ليقول لأبيه: أبى لى عندك طلب أود أن تلبيه ولا تتعلل بالأعذار.

نظر السلطان وقد علاه بسمة هادئة، نظر إلى زوجته خديجة، ثم استدار إلى ولده وقال: وما ذاك يا محمد؟

قال الأمير الصغير محمد: « دع أم كلثوم ومن تأتمنهم علىَّ يأخذوننى إلى العمة – مارا –» وما إن نطق الغلام باسم (مارا) حتى تبدل لون أمه – خديجة – وتحول من البهجة إلى الامتعاض. فالأميرة (مارا) هى الزوجة الثانية الجديدة للسلطان مراد، ويقف السلطان حرجاً إزاء هذا الطلب، الذى يخشى إن لباه غضبت زوجته خديجة، وبذكاء الزوجة الصالحة وفطنتها تقوم هى بالدور، فتقول لزوجها السلطان: دعه يذهب مع أم كلثوم إلى عمته مارا.

قال السلطان الذى اغتبط فرحاً فى داخله وأبدى عكس ذلك: ولكنى أخشاه السفر فـ (مارا) تقيم فى بورصة والمسافة طويلة وشاقة من أدرنه، قالت خديجة وقد لمحت خفايا زوجها: ليست تلك هى المرة الأولى التى يزورها ويسافر هناك دعه يامراد. ويتعلق الفتى بحضن أمه فرحاً أنها لبت له رغبة، ظن الصغير أن والده من سيلبيها، وبعد أيام قضاها فى بورصة، يعود الأمير الصغير ليواصل دروسه بمدرسة القصر، وثانية أتى يوم درس التاريخ، ليتلقاه هذه المرة عن المؤرخ التركى (خليل أدهم بك) ومن عجبٍ أن كبار رجال البلاط يحضرون مع التلاميذ الصغار ويسمعون أيضاً.

وقف المعلم القدير خليل أدهم بك، وبدأ حديثه قائلا:

(إن درسنا اليوم عن تاريخ أجدادنا العظام من آل عثمان، فهو درس هام يعرفنا بتاريخنا الوطنى، إن بدايتنا الأولى كأتراك عثمانيين تبدأ من قبيلة تركمانية من – عشيرة قابى – إحدى قبائل الغزو التركى، الذين شدهم الإسلام إلى رحابه .

وارتضوه دينا، طائعين طامعين فى شرف حمل اللواء – لواء الدين الحنيف).

وصمت المعلم خليل أدهم بك، ثم أذن لتلاميذه السؤال، كى لا ينتقل من وصلة لأخرى حتى يستبين له استيعابهم للدرس.

فانبرى الأمير محمد سائلاً: سيدى المعلم إذا كانت بدايتنا لهذه القبيلة، فأين هى كانت، وكيف كبرت وصارت دولة؟

وتبسم المعلم، الذى أحس بذكاء تلميذه من خلال سؤاله، فقال له: لا تستبق الآتى من القول يا محمد، هناك من ليس عنده ما هو عندك من المعرفة عن آل عثمان أجدادك، ثم استطرد فى إجابته بالشكل الذى لا يحرم غيره من التفاصيل.

(كانت قبيلة (قابى) التى منها أصل الأتراك، تعيش فى بدايات القرن الثالث عشر الميلادى فى – خرسان – ثم دارت عليهم لعنة المغول، فاضطروا لترك الديار التى آوتهم، فرارا بدنهم من بطش المغول، ولم يحددوا وجهة معلومة، ساروا فى الأرض على غير هدى، يلتمسون موضعا آمنا، فتركوا خرسان واتجهوا غربا صوب "أذربيجان – وأرمينيا" حتى وصلوا تخوم آسيا الصغرى، وكان هناك فى ذاك الوقت سلطانا يُدعى –علاء الدين السلجوقى – يحكم دولة السلاجقة الأتراك وكان هذا السلطان المؤمن مرابطاً على ثغر حيوى، يحمى ما تبقى من سلطان السلاجقة الذين نالوا القسط الأوفى من بطش المغول المتربصين بالمسلمين أينما كانوا، وكان على رأس القبيلة التركية (قابى) النازحة من خرسان زعيم

يُدعى – أرطغرل – تحلى بصفات المروءة والشهامة، والإقدام. فبينما هو وقبيلته فى جولة انتقال من منزل لآخر قرب – أنقرة – إذ رأى جيشين يقتتلان على مد بصره، فراح هو ورجاله يرقبون الوضع من بعيد، فإذا بجيش قوى يكيل الضربات بقوة على خصمه الضعيف، فأخذته أرطغرل النخوة والشهامة، دونما أن يدرى هوية الجيشين، فانقض على الجيش الكبير الباغى، الذى أوقع قتلى وجرحى فى الجيش الضعيف، وتحول سير القتال لصالح الجيش الضعيف الذى تبين لأرطغرل أنهم أتراك سلاجقة مسلمون، والجيش الباغى هو للمغول ، وانتصر جيش المستضعفين بعد أن شارف على الهلاك، بفضل شهامة أرطغرل، ووصل الخبر إلى السلطان السلجوقى – علاء الدين – فاستقبل هؤلاء الأتراك أبناء العمومة استقبالاً حافلاً، وكافأهم على صنيعهم بأن أقطعهم جزءاً من مملكته قرب مدينة – بورصة – وبعد أن كانت قبيلة أرطغرل تجوب سهول ووديان آسيا الصغرى، ها قد كافأها الله لشهامتها بمستقر تضع فيه رحالها، مات أرطغرل ١٢٨٨م، وخلفه ابنه الأكبر – عثمان – وكان علاء الدين لايزال سلطانا على – قونية – السلجوقية، وشهدت العلاقات توطداً كبيراً بين السلاجقة وقبيلة – قابى – فلما تولى عثمان بعد أبيه أمرها، أبدى من ضروب الشجاعة والبسالة والإقدام، ما جعل مقامه رفيع فى البلاط السلجوقى.

فكان لا يكف عن الإغارة على قلاع الروم المتاخمة له. وكان يسلبهم الغنائم ويحرمهم الأمن، ولم ير السلطان علاء الدين بدا من إسناده مهام عظيمة، كان جيشه يؤديها، فأخلعه لقب – آمير حدود –

وصار أمن حدود المسلمين فى آسيا الصغرى بيد هؤلاء الأتراك، وزاد علاء الدين فى إكرامه بأن منحه الاستقلال التام. بل وأقطعه كافة الأراضى والقلاع التى فتحها، ملكاً خاصا له ولقومه. وأجاز له ضرب العملة باسمه. كما أجاز أن يذكر اسمه كما هى كانت العادة فى خطبة الجمعة مقرونا باسم السلطان السلجوقى. ومنحه

لقب – بك – وكثر أتباع عثمان، وراح يغير على قرى الروم، وضم الكثير منها لسلطته، وتشرفا بأمجاده، أمجاد عثمان بك أطلق اسمه على تلك الأسرة التى حكمت هذه القبيلة التركية – العثمانيون – فنحن ننتسب إلى هذا الأمير، الذى وضع حجر الأساس لدولتنا المجيدة –الدولة العثمانية – .

ومرت الأيام وتداعت الأحداث، وكلها صبت فى صالح السلطان عثمان وقومه فأتى عام ١٢٩٩م، وفيه أغار المغول على دولة السلاجقة، ودمروا عاصمتها (قونية) وقضوا على دولة السلاجقة، ولم يمض عام على تلك الأحداث، حتى وافت المنية السلطان علاء الدين، فدبت الفوضى، وانفرط عقد السلاجقة، واستقل كل أمير سلجوقى بمقاطعة، ورأى عثمان أن بإمكانه ضم كل هؤلاء إليه، مكونا سلطنة عثمانية، وارتضى أمراء البيت السلجوقى طواعية، أن ينضموا إليه ويعيشوا فى كنفه، فهو خير من يؤتمن على لم الشمل، واتسع سلطان عثمان ليشمل كل الوافدين إليه من المجاهدين ضد المغول، ممن شردوا عن ديارهم من أهل الصوفية والعلماء من شتى بقاع العالم، فليس هناك سواها ملجأ وملاذا للمسلمين بعد هذا الزحف الوحشى للمغول، وكذا لم يبق سوى السلطنة العثمانية، تقف حائلا أمام الروم البيزنطيين المتربصين بالمسلمين، وكانت وصية عثمان حين وافته المنية أبلغ وصف لشخصية هذا السلطان المجاهد؛ حيث قال وهو فى نزعه الأخير لابنه – أورخان – : "عليك يا بنى بالالتزام بالشرع الشريف، والتشاور مع أربابه فى كل ما أنت مقدم عليه، وعليك بإكرام الناس وتقديرهم حق قدرهم، وتوقير العلماء منهم ، فخير الناس أنفعهم للناس، وعليك بتعظيم أمر الله والرحمة بخلقه والجهاد فى سبيله وإعلاء كلمته")، وبعد أن أنهى المعلم درسه القيم قال: وكانت تلك يا أبنائى قصة بداية النشأة لدولتكم العظيمة، الدولة العثمانية.

حكاية بيزنطة

(٣)

وتتواصل دروس التاريخ، إلى جانب العلوم الأخرى، لكن السلطان مراد الثانى أولى التاريخ فى تنشئة ولده، أهمية قصوى، لعلمه أن فيه عبرة للحاضر، ونبوءة للمستقبل، خاصة بعد أن وضع لابنه هدفاً – فتح القسطنطينية – بعدما فجعته الأيام فى ابنه الكبير – علاء الدين – ابن الرابعة عشرة، والذى توفى إثر حادث أليم فى ميدان التدريب العسكرى، لذا عهد لابنه محمد كبار مدرسى التاريخ الذين استطاعوا بمهارة فائقة، إدخاله فى عقل وقلب الصغير، **أمثال:**

(الخوجا سعد الدين) الذى راح يقص عليهم فى إحدى يومياتهم الدراسية حكاية بيزنطة الرومية قائلا: (أيها الأحباء، إن درسنا اليوم يحكى قصة امبراطورية كانت ذات طول وبطش، وأضحت اليوم تصفى حساباتها مع الزمن، إنها الإمبراطورية الرومانية، عندما رفع – رومالوس – معوله عام (٧٥٦ ق.م) وضرب به الأرض ليحفر الأساس الذى بنى عليه قريته الصغيرة على ضفاف نهر – التبر – فى إيطاليا، ليجعل منها مأوى وملجأ لأتباعه من اللصوص وقطاع الطرق، لم يكن يحلم ساعتها، بأن هذه القرية ستنمو، وتزدهر لتصبح مدينة، وعندما قتل أخاه التوأم سافحاً دمه فوق ذلك التراب، لم يكن يحلم أيضا أن هذه القرية، بعد أن تكبر وتصبح مدينة، ستكبر أيضاً وتمتد لتصبح امبراطورية تحكم مساحات شاسعة من القارات الثلاث، فأطلقوا على هذه القرية اسم (روما) تيمناً باسم مؤسسها – رومالوس – والذى أحالوه بعد وفاته إلى إله يعبد، وتوالى على حكم روما ملوك وقادة ادعوا أنهم من سلالة –رومالوس الإله – وأصابت بعضهم لوثة، فوصفوا أنفسهم آلهة تُعبد فى الأرض.

إنها قصة ميلاد الإمبراطورية الرومانية، التى بسطت سلطانها على شطر كبير من العالم القديم لقرون طوال، البداية كانت

سلب ونهب، وطمس وتشويه لأعظم ثقافة وفكر عرفهما الإنسان فى تاريخه القديم، إرث أثينا الفلسفى، وحضارة اليونان العريقة، فقد طالت يد القراصنة الرومان أحفاد رومالوس مدارس النور والحكمة، التى كانت متجذرة على ضفتى نهر التبر فى إيطاليا ، والتى أحالوها مقراً للقرصنة والغزو – روما).

ويصمت المعلم الخوجا سعد الدين للحظات، وعلى الوجوه انهماك حاد ، وتلهف لمتابعة السرد، وجوه التلاميذ، ووجوه من راق لهم من الكبار سماع المفيد من التاريخ، وهم جلوس فى الخلف، بينهم الشيخ آق شمس الدين، وتخرج كلمات الإعجاب من الشيخ للمعلم: بوركت يا سيد سعد، التاريخ ينساب من لسانك انسياب الماء العذب، أكمل فنحن متلهفون للمزيد.

وتبسم الخوجا سعد الدين، ثم عاود حديثه (وخطت الإمبراطورية مشواراً طويلاً عبر القرون، تعرك الزمن، وتصارع الجغرافيا، فهى تتمدد على أشلاء الضحايا والمعذبين ، التى قهرتهم آلة الحرب الباطشة لها، ومن أسرة حاكمة، إلى أخرى، ومن انقلاب لآخر، بدت على ملامحها بدايات الوقوع، لولا أن جاء هذا الرجل ، الذى دفعته الأقدار دفعاً.

الإمبراطور – قسطنطين الذى اعتلى عرشها (٣٠٦م – حتى ٣٣٧م) فبث فى الإمبراطورية النشاط بعد انقطاع، واسترد هيبتها، ومن يومه الأول لم يهدر ساعة، جملة إجراءات اتخذها دلت على ذكائه وحنكته، من أبرزها، بل أهمها، اعترافه بالديانة المسيحية (٣١٣م) لضرف روما تدريجيا عن وثنيتها العقيمة ، التى تعرقل سيرها، وتلا خطوته الجريئة تلك، خطوة تماثلها بعداً وأثراً، حينما أحس أن روما عاصمة الإمبراطورية فى مهب الخطر لا محالة، فتفتق ذهنه للبديل، اختار من بين المدن المتناثرة فى ربوع أرضه مدينة ليست بأكبرهم، ولا بأغناهم، بل هى أقلهم فى كل شىء تحياه المدن، عدا عن كون موقعها يكسبها خصيصة الديمومة والأمان.

اختار قسطنطين مدينة – بيزنطة – فى الشرق لتكون العاصمة الأكثر أمناً للإمبراطورية، وأطلق عليها اسمه (القسطنطينية) لقد أصاب قسطنطين رأياً حين شيد عاصمته الجديدة محل بلدة – بيزنطة القديمة – على ضفاف البسفور فى ركن محكم غاية فى الإغلاق من كل جانب، حتى ليحار الأعداء فى اقتحامها ، فهى منطقة شبه جزيرة ، يحيط بها من الجنوب مياه بحر مرمرة، ومن الشرق مضيق البسفور، ومن الشمال مياه القرن الذهبى، وتسيطر المدينة على المضايق التى تربط البحر الأسود بالبحر المتوسط).

وراح الأستاذ خوجا سعد الدين يشد السامعين عبر فقراته المركزة، ينتقل من نقطة إلى أخرى، وفند لهم فى إيجاز غير مخل كيف سارت تلك الإمبراطورية مع الزمن، وكان يقف على المحطات الفاصلة ليوضحها جيداً، فانتقل من تشييد العاصمة الجديدة إلى انشطار الإمبراطورية إلى قسمين شرقى فى بيزنطة وغربى فى روما، ثم إلى سقوط القسم الغربى، وبروز الشرقى البيزنطى – القسطنطينية - ثم تحول الصراع بعد استتباب الأمر أن حملت القسطنطينية لواء الروم فى مواجهة فارس ، ثم المسلمين، وراح يعرج من مرحلة لأخرى حتى انتهى به المطاف إلى وضع القسطنطينية الحالى، وأنهى المعلم خوجا سعد الدين درسه، والكل يتمنى لو لم ينته، إصغاء من التلاميذ، وإنصات من الكبار، رفاق الشيخ آق شمس الدين.



السلطان الحزين

(٤)

ووقع ما كان الإعداد والترتيب من أجله، اندلعت الحرب فى آخر شتاء عام (١٤٣٩م) بين حلف الأوربيين الموالى للقسطنطينية (مقدونيا – بلغاريا – الصرب – المجر – ألبانيا) والجيش العثمانى اللجب، الذى حسم النزال فيها، فكانت ضربة قاصمة، مكنت العثمانيين من وضع الأقدام على أجزاء مهمة فى البلقان، فبات الهدف الأوحد – فتح القسطنطينية – أقرب من ذى قبل، بيد أن الفرنج تربصوا بالعثمانيين سنوح فرصة، حتى واتتهم فى عام (١٤٤٢م) حين منيت قوات السلطان مراد بهزيمة مؤلمة، على يد القائد المجرى (يونكى هونياد) فساءت معنويات الجند، بعد الهزيمة، وعمت الفوضى أجزاء من البلاد وبدا على السلطان مراد الثانى، ابن الخمسين، الشحوب واعتلال الصحة، ونصحه الأطباء بالخلود إلى الراحة، وتدخل عليه الزوجة المخلصة الوفية – خديجة حمزة – تشد من أزره، وتسرى عنه، تدخل عليه لتخرجه من عزلته التى آنسته، قالت وهى قلقة عليه: يا مراد لقد قال الأطباء لك إنك لست مريضاً، وكل ما يلزمك هو أن تركن للنوم فى ساعات الليل.

قال السلطان المثقل بالهموم: أنا لا يخيفنى المرض، وأنا رجل يسكن الإيمان قلبه، ولكن خشيتى كل خشيتى، أن ألقى الله وأنا مقصر فى أمانته، ولم أمكن لدينه فى الأرض.

قالت خديجة وقد قرأت ما خلف الكلام: صدقت وقد عهدناك مؤمنا تقف على محارم الله ولكن هوِّن على نفسك، ما حدث ليس بيدك، ولا هو بتقصير منك، إنما هى الحرب يوم لك ويوم عليك.

قال السلطان: يا خديجة لقد رحل آل عثمان آبائى وأجدادى، وتركوا خلفهم مملكة شامخة عزت الإسلام بقوتها .

وكل خوفى أن لا أترك لأولادى من بعدى، سوى الهزائم والوضع المتردى، إنها أمانة كبيرة ليست لآل عثمان وحدهم، إنها لأمة الإسلام ونحن نقف على أهم ثغور هذه الأمة.

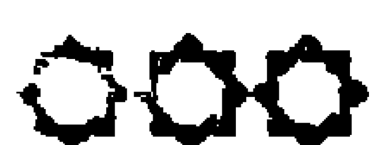
وسكت السلطان هنية، وتأثرت زوجته بمقالته وبدا على عينيه ، وكأن الدمع يقترب النزول، فأدار وجهه ناحية النافذة المطلة على ظلام حديقة القصر ، وراح يبتهل بصوت منخفض يسمعه القريب منه: اللهم أمد فى أجلى حتى أرى نصرك الذى وعدت، اللهم أمدنا بمدد من عندك يحفظ ثباتنا، اللهم احشرنا فى زمرة الشهداء ومن رضيت. آمين يارب.

وبكت خديجة الزوجة المؤمنة المخلصة، وراحت تُؤَمِّن على الدعاء، ثم قالت له بلهجة حانية: كفاك يا مراد ، فالله ناصرك، قم إلى فراشك.

قال السلطان: لقد جافت جفونى النوم، وطار منى.

قالت خديجة: ولكن فى الصباح تنتظرك المهام الكثيرة، لابد لك من الراحة كى تنجزها.

ويجاهد السلطان نفسه، ويحايل النوم جاهداً، حتى إذا أسلم نفسه للأذكار المأثورة والأدعية جاء النوم طائعاً.



السلطان الصغير فى مأزق

(٥)

وتمر الأيام بالسلطان مراد الثانى ثقيلة ، ويقرر أمراً للخروج من هكذا ظروف، تنصيب ولده محمد ابن الثانية عشرة سلطاناً للبلاد، ويضع تحت إمرته طاقماً استشارياً من كبار رجالات الدولة، ليعينوه على دقة القرار، ويصوبوا له الخطوات، ليعتزل هو معترك الأحداث.

وتصل تلك الأنباء إلى إمبراطور القسطنطينية (حنا دار جازيس باليولوغس) والذى يُدعى (حنا الثامن).

وفى صبيحة يوم وصول الأنباء، وداخل القصر الإمبراطور ى – بلاخرناى- يدور الحوار بين إمبراطور القسطنطينية حنا الثامن وشقيقه قسطنطين، فى حضور الوزير الأول (جورج فرانتزس) وقائد الجيش (لوكاس نوتاراس) ووزير الدبلوماسية (دوكاس) وآخرون من رجالات الصف الأول فى بلاط بيزنطة قال القائد لوكاس: الآن القوات الضاربة للعثمانيين مرابطة على أرض البلقان بجوار أشقائنا، والتدهور داخل العثمانية يسرى بشدة، والسلطان الصغير ألعوبة فى أيدى مراكز القوى فى بلاط أبيه مراد الثانى، الذى اعتزل السياسة فى سرايا –مانيسا– ظنا منه أن رجاله يدبرون الصالح لابنه.

قال الإمبراطور حنا الثامن: يا لوكاس إنها فرصتنا، ماذا ترى لنا إزاء هذا الوضع العسكرى، الذى صار إليه عدونا؟

قال القائد لوكاس: لو أبلغنا أصدقاءنا فى حلف البلقان، بأننا على استعداد لدعم أى عمل عسكرى، فيه مباغتة تلك القوات العثمانية الهشة من جهة بحر الشمال، ولن يعدو الأمر كونه نزهة سهلة.

قال الإمبراطور موجها كلامه لشقيقه قسطنطين: ما رأيك يا قسطنطين؟

قال الأمير قسطنطين: كيف نفعل وقد أُبرم معهم ومع دول البلقان – معاهدة سكدين – (١٤٤٤م) التى تمنع الطرفين من العدوان، وفيها أقسم أصدقاؤنا بالإنجيل وهم أقسموا بالقرآن؟

قال الإمبراطور حنا الثامن: لن يوقف الإنجيل أحداً إذا أتت الفرصة، لا نحن ولا الحلفاء يعتدون كثيراً بالقسم، إنها الفرص والمصالح وحدها التى تحكم سيرنا فى هذا الطريق.

واختمرت فكرة العدوان فى رؤوس المحرضين، وأوعزوا بها إلى الحلفاء، فهم قد رأوا أن الظروف الداخلية للعثمانيين تمكنهم من فعل شىء على الجبهة، وتلك فرصة لن تأتى مثلها قط.

لكن بقى هناك أمر لابد البت فيه قبل الحرب، أن يبارك بابا روما الحملة الحربية ويفتى القادة بالتحلل من القسم الذى أقسموه على الإنجيل فى معاهدة سكدين (١٤٤٤/٧/١٢م).

ولم يتأخر بابا روما (أيوجنيوس الرابع) بارك الغدر، وأعطى به فتوى صريحة ، ووصلت الفتوى إلى (الملك لاديسلاس الثالث) ملك بولونيا والمجر، وبدوره أرسل إلى ملوك وأمراء أوروبا باستدعائهم على عجل ، فى مقر القيادة العامة فى (بودابست) ، ولبى الملوك والأمراء الدعوة، وحضروا الاجتماع، الاجتماع الذى ضم ملوك وأمراء الدول الآتية: (البوسنة – مقدونيا – المورة – بلغاريا – الصرب – المجر وبولونيا – ألبانيا) إلى جانب بعثة البابوية والتى مثلها – الكردينال جسارينى – وأسفر الاجتماع عن تشكيل حملة صليبية يباركها البابا أيوجنيوس الرابع.

وتجهزت الحملة على الأرض، وهى فى طريقها إلى البحر، وتسامع قادة البلاط العثمانى بالخطر القادم، واهتزت ثقتهم بالسلطان الصغير محمد، وإذا بهذا الصغير يذهلهم ، إذ أمر بجمع الوزراء، وسيطر على الموقف، وقال ما هدأ من روعهم: لقد أرسلت لتوى رسالة إلى السلطان مراد الثانى . أدعوه فيها بالعودة، وبأسرع ما يكون لاستلام مقاليد الحكم، لأعود جندياً خلفه وسأقرأ

عليكم المرسوم: (إلى السلطان مراد الثانى – إن كنت تصر على أن أبقى على رأس الدولة، فإنى أذكرك يا والدى بما أوجبه الله على المسلمين من حق الطاعة لولى أمرهم، ولهذا فإنى آمرك أن تسرع بالقدوم إلى أدرنة لقيادة جيش المسلمين).

وحين وصلت رسالة السلطان الصغير إلى السلطان مراد الثانى، لم يتمالك نفسه من فرط السرور. وذهب عنه ما كان يعانيه من كرب ومرض، وزرفت عيناه دموع الفرح. فقد أدرك أن ولده الفتى الذى لم يتجاوز الرابعة عشرة يتصرف بحزم الرجال وعزيمتهم.

وسارع إلى أدرنة وتنحى، له الصغير عن مقاليد السلطنة، وسط حشد غفير من رجالات الدولة، فى مناخ مفعم بالفرح والسرور لدى الكل، وكانت لحظات أعادت الطمأنينة للجميع، وطار الخبر سريعاً فى كل أنحاء البلاد، وبمجرد انتشار النبأ عاد الأمن الداخلى لسابق عهده.

وعلى الأرض التطورات تتسارع وتيرتها، ويجمع السلطان مراد الثانى أركان دولته ووقف السلطان فى قاعة الخطط الحربية، أمام الخريطة والغضب يتنصد من عروق وجهه، وبدا عليه التحدى فى أقصى درجاته.

وقال لرجاله قبل أن يعد تشكيل العملية الحربية:

(إن هؤلاء الحمقى، إنما ظنوا فينا الضعف، حين وقعنا معاهدة (سكدين) إثر معركتنا الخاسرة، ونسوا أنها كانت جولة لهم أعطاها القدر إياهم من جولات كثيرة أخرى كانت لنا – وبدل أن يركنوا للسلم، ويجعلوها مدرجاً للتواصل والتعاون، تربصوا بنا هنات ضعف، فلما اعتلى ولدى العرش، سوَّل لهم شيطانهم أنها الفرصة، فنقضوا عهداً أقسموا عليه بأقدس مقدساتهم – الإنجيل – ألم يقسم – لاديسلاس – الأحمق بالإنجيل).

وصمت السلطان المغضب برهة، والقاعة يلفها السكون

والإنصات، ثم عاود كلامه.. .. (لقد أقسمت لهم من قبل بأن أفي بعهدى فى تلك المعاهدة، وبررت بقسمى، وكنت أمام الله مسؤولا وها أنا الآن أُقسم أمامكم نيابة عن المسلمين ، وعن شعبكم الذى حمل راية الإسلام، ونيابة عن كل شريف يأبى الضيم – أقسم بالله بأنى لن أترك هؤلاء الحمقى ينعمون فى أرض الله، وهم يجاهرونه العداء، لنؤدِّبنهم أدباً تتسامع به الدنيا إنها الحرب وأرواحنا فداء للدين).

ونشبت الحرب فوق (سهل فارنا – بأرض البلغار) وقاد السلطان مراد الثانى بنفسه الجيش، وأظهر السلطان الصغير محمد ضروبا من البسالة والروعة أذهلت قادة البلاط، وروَّعت الأعداء.

وإن هى إلا صولات وجولات، وقبل أن تغرب شمس يوم المواجهة كان النصر حليف العثمانيين، وتشتت شمل الأعداء المتحالفين، وفروا مذعورين من هول رشقات البنادق، ودوى انفجارات المدافع، وسأل السلطان مراد الثانى عن مصير أعدائه، فزفوا إليه بُشرى مقتل – لاديسلاس الثالث – والكردينال جسارينى موفد بابا روما، وفرار باقى الملوك والقادة وعلى رأسهم – يونكى هونياد – الذى هرب وترك جنود الحملة فى أتون الخطر، أكثر من ثمانين ألف وقعوا فى الأسر لدى العثمانيين، وقتلى بلغوا إلى أربعين ألف ناهيك عن الجرحى من أصل جيش قوامه مائة وعشرون ألفا، وفقد الأتراك ما يربو على الألفين شهيد، من أصل جيش قوامه مائة وعشرون ألفا هم عدة الجيش العثمانى يوم – فارنا – ١٤٤٤/١٢/١٥م.

ويأمر السلطان بجثتى الملك لاديسلاس الثالث، والكردينال جسارينى، ويأتى بهما الجنود، وتُعلق على سارى طويل جثة (لاديسلاس الثالث ملك المجر وبولونيا) مقطوعة الرأس، تعلق من القدمين، وعلى إحدى يديه المتدلية تُعلق النسخة الأصلية –لمعاهدة سكدين – التى نقضها وعلى سارى بجواره عُلِّقت جثة (الكردينال جسارينى) موفد البابا، وأمام حشود الأسرى المتراصة، وكذا

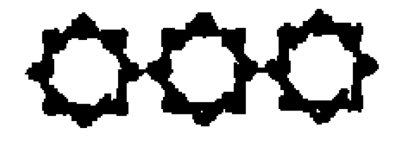
الجنود والقادة، كان هذا المشهد المعبِّر، الذى أراده السلطان درسا يؤدب الأعداء أدبا تتسامع به الدنيا، وقد برَّ بقسمه الآن.

وتغيرت معالم على الأرض، وتأكدت حقائق كذلك، المعالم الهامة انفصال بولونيا عن المجر إثر مقتل لاديسلاس الثالث، وصارتا دولتين بعد أن كانت دولة واحدة، وتأكد عدم إمكان قلع حكم الأتراك الموجود فى البلقان، وشهدت الأراضى العثمانية احتفالات النصر، وعمَّ الفرح أرجاء الولايات، ولم يقتصر الاحتفال على الداخل، بل امتد إلى العالم الإسلامى أجمع.

ويتذكر السلطان فى تلك اللحظات حوارا قد دار بينه وبين الصدر الأعظم جاندرلى خليل باشا حين قال له: "كان ينبغى أن ننتظر سنوات على الأمير محمد، يكون فيها قد استوفى العلوم العسكرية والعلوم الإدارية" تذكر هذه المقولة السلطان مراد، وألحق ابنه محمد بالمركز الحربى العثمانى – الذى يدرس فيه كبار القادة فى البلاط، لتحسين الأداء العسكرى والإدارى إذا ما ارتقوا للرتب العليا.

وتسنى للأمير محمد فى هذا المحفل العلمى الكبير –المركز الحربى العثمانى – أن يتعلم على أيدى علماء هم قمم شامخة فى الدولة العثمانية.

أمثال – الوزير شهاب الدين شاهين – عالم عصره يعلم القادة مادة الهندسة العسكرية – الوزير خضر شلبى – معلم مادة الخطط العسكرية. – علاء الدين بن محمد – مدرس الرياضيات بالمركز الحربى العثمانى – جورج امبروتزوس – يونانى الجنسية ومدرس الجغرافيا بالمركز الحربى – كرياكوا أنكو نيتاتو – معلم اللاتينية والتاريخ القديم، وغيرهم من مشاهير العصر فى العلوم والمعارف ممن كانوا يقومون بالتدريس فى المركز الحربي العثماني.



فارس معركة كوسوفا

(٦)

وبدا نجم الأمير محمد بن مراد الثانى في البزوغ، بعدما أبلى بلاءً حسناً فى (فارنا) فعهد إليه والده فى (عام ١٤٤٧م) قيادة حملة وهو فى الخامسة عشر، لملاحقة المتمردين ممن كانوا خاضعين للعثمانية، الأمير – اسكندر بك – الألبانى الذى ارتد عن الإسلام، وحالف الفرنج وكذا على – المورا – وتجلت براعته الحربية رغم صغره، حين أعاد بقوة الحسم ، تلك البقاع لسلطان الدولة.

وشهد هذا العام توالى النكبات على المحرض الكبير (بابا روما – أيوجنيوس الرابع) فأصابته كآبة أقعدته عن الحركة، ولم يلبس طويلا ، مات هماً وكمداً، بعدما أشعل الدنيا حروباً.

واجتمع مكتب البابوية الإدارى (الكيوريا) ونصَّب خلفا له (نيقولا الخامس) ١٤٤٧م، وبدأ نيقولا يعد للانتقام من العثمانيين، وبدأ مراسيمه بالتحريض ، فأرسل إلى حلفائه الأوربيين الذين هُزموا فى – فارنا – يحثهم على التحرك صوب المسلمين الأتراك.

وجاء عام (١٤٤٨م) ليشهد تكتلا أوربيا ، اتحدت فيه (المجر – وألمانيا – وبولونيا – وصقلية – ونابولى – والبابوية – ومولدافيا) ويقود الحلف – يونكى هونياد – المجرى وتصل الأنباء سريعة عن طريق مخابرات السلطان، وعلى فوره يعقد السلطان مراد الثانى مجلس حرب طارئ، فى قاعة الخطط الحربية بالقصر، ويضع ولده الذى أتم السادسة عشرة الأمير محمد، على رأس جيش لجب ليقود النزال.

وفى صبيحة يوم (١٤٤٨/١/١٧م) التقى حلف أوروبا الموتور من هزيمة فارنا مع العثمانيين بقيادة الأمير – محمد بن مراد الثانى – فوق صحراء (كوسوفا) ويأمر الأمير محمد رجال المدفعية أن

يسرعوا ويلاحقوا القصف على مراكز قيادة جيش العدو، ويتركهم مسرعاً نحو فرسان الإنكشارية، ويغادرهم وهو ينطلق فى الميدان فوق صهوة جواده إلى رجال العزبان حاملى البنادق الطويلة، ويأمرهم من فوق فرسه، بالتوجه صوب ثغرة فى قلب جيش العدو قد شجتها المدفعية، ويلمح السلطان وأركان دولته فى الخلف، ولده الأمير محمد وهو ينطلق بجواده شاقا الصفوف، وفى كل اتجاه لا يكف عن الحركة ويحذر أحد مرافقى السلطان: جلالة السلطان نخشى على الأمير محمد أن يتعرض لمكروه، الحماس يجرفه دون حساب!! ويطمئنه السلطان قائلاً: لا بأس عليه، إن ولدى محمد قد نضجت مهاراته العسكرية، وهو قد تعلم أن يجمع بين الحماس والحذر، دعوه فهو مدرك لما يحيط حوله ، والأنظار مسلطة على الأمير الفارس، الذى ما إن حط فى ركن من أركان الجيش، إلا ودب فيه النشاط والحماس، فإذا حط عند قوات العزبان ذوات العمائم الحمراء رأيت العمائم الحمراء كالموج تنحدر صوب الأعداء ممطرة وابل طلقاتها عليهم، وإذا حط عند (قوات الإنكشارية ذوات العمائم البيضاء) وجدت العمائم البيضاء كالأكوام على مدفعيتها ، ملقية حممها على أرض العدو ، ومخلفة آثار دامية، وينطلق الأمير محمد صوب هذا الممر، الذى يؤدى إلى مؤخرة جيش العدو، لإرباك قيادته، وتتواصل المعارك الطاحنة ثلاثة أيام دون انقطاع، نهاراً وليلاً ، ويتألق نجم الفارس المغوار، الأمير ابن السادسة عشرة، ويراه الجميع فى الميدان كالشعلة المتقدة، ويراها السلطان مناسبة ليقول لأركان دولته، الذين خشوا على سير المعركة تحت إمرته، يقول لهم: لا بأس علينا وعليه، الآن نلقن – يونكى هونياد – درسا ، يلقنه له أصغر أبناء دولتكم.

وفى مساء اليوم الثالث، لمعركة صحراء كوسوفا، الموافق

(١٤٤٨/١/١٩م) تتجلى النتائج المبهجة، فقد طوقت القوات العثمانية حلف الأشرار ، بعد أن تم استدراجهم إلى شرك ، وأحست قوات العدو خطورة الموقف، وقام الداهية – يونكى هونياد – قائد قوات العدو بفتح ثغرة، لا للقتال، وإنما للهرب.

وتأتى الأخبار السارة للسلطان مراد الثانى فى مقر القيادة المتنقل ، ويتصادف وجود الشيخ آق شمس الدين إلى جواره، فيقول السلطان وملؤه الفرح والسرور: أبشر يا شيخ، قم وحث الآن الجنود على الحمد، لقد أظفرنا الله بالنصر، على يد تلميذك النجيب محمد .

وينطلق الشيخ الوقور ، كأنما عاد لأيام الصبا، يعدو مسرعاً وسط الظلام الذى يخيم على سهل كوسوفا ، ويرتقى ربوة عالية، ويصيح بأعلى صوته "الله أكبر، الله أكبر.. تقدموا ولا تتركوا منهم أحداً ، إنهم الساعة يفرون، اقتلوا أعداء الله ، فأنتم منتصرون عليهم بإذنه.

وإذا بالقسطنطينية تتلقى النبأ المفجع ، هزيمة حلفائها فى صحراء كوسوفا هزيمة نكراء ، وفرار قادة الحلف من أرض المعركة، ولا تمهلها الأيام لتفيق من الصدمة فتُفجع بنبأ آخر يهز جنبات القصر الإمبراطورى وفاة الإمبراطور – حنا الثامن – امبراطور بيزنطة، ودُقت أجراس الكنائس حداداً، ودُعيت الكنائس إلى قداس وداع، واجتمع المجلس الروحانى للكنائس برئاسة – البطريرك جورج جينادوس – ومجلس أمراء البلاط، وأقر الجميع تولى قسطنطين العرش ، خلفا لشقيقه (حنا) وتوج قسطنطين إمبراطوراً باسم – قسطنطين الحادى عشر ١٤٤٨م.

❂❂❂

وفاة الوالدين

(٧)

ويفجع القصر الهمايونى بأدرنة بنبأ وفاة الأميرة – خديجة حمزة اسفنديار – الأم الحنون للأمير الشاب محمد بن مرادِ الثانى، وتُفجع معها البلاد، ويُضرب الحداد على ربوعها، وتلم بالسلطان مراد الثانى حالة من الحزن، لم تأته من قبل، وتمر أيامه عصيبة قاسية، عليه وعلى ولده محمد، الذى راح ينهمك فى الأعمال العسكرية التدريبية، وكذا الأعمال الإدارية، كى لا يكون فى الذهن متسع للذكريات المؤلمة، وفى جلسة من الجلسات التى يطيب للسلطان اختلاسها من وقته المشحون، مع رفيقه الشيخ آق شمس الدين، يدور الحوار بينهما:

قال السلطان: الآن يا شيخ آق شمس الدين لست قلقاً على ولدى محمد، فقد رمقته من بعيد ، وطمأننى أن ليس له هم إلا أمور الدولة والجيش، القلق يا شيخ على والده الذى أمامك!!

وتبسم الشيخ آق قائلا : وأى قلق على جلالتكم ؟ قال السلطان وقد تغير لون وجهه : صرت لا أطيق النوم فى القصر ، كل شئ فيه يذكرنى بزوجتى الراحلة ، وزوجتى الثانية الأميرة – مارا– من يوم أن عادت من – بورصة – تحس منى ذلك ، وهى تتفانى فى صرفى عن همى.

قال الشيخ: لكى تزيل مسحة الحزن من قصرك، بادر بإقامة عرس فيه، فالفرح يُذهب الحزن، وتعجب السلطان وقال: إقامة عرس، لا ، لا أفجع الأميرة مارا بالزواج عليها؟! فضحك الشيخ وقال: لم أقصد جلالتكم!

قال السلطان فى تعجب: ومن تقصد إذن ؟

قال الشيخ : ولدك الأمير محمد، ها قد صار فى السابعة عشرة

من عمره، وتلك أنسب أيامه للزواج.

قال السلطان: صدقت ولكنى لم أبادره الحديث من قبل فى هذا، وتربصته أن يأتينى وقد وقعت عيناه على فتاة أحلامه، لكنه لم يفعل، وكلما خطر ببالى ذلك وجدتنى أقول إنه لا زال صغيرا بعد ما دام لم يفاتحنى فى ذلك، فإذا جاءنى بأمر من هذا سأذهب معه وفق رغبته.

قال الشيخ: لكأنك جلالة السلطان، لم تقرأ ما فى رأس ولدك بعد، إننى أعلم عنه الكثير، فهو تلميذى.

قال السلطان: ماذا تقصد يا شيخ آق؟

قال الشيخ: حتى لو كبر ابن جلالتكم، وصار ابن الثلاثين، فلن يأتى جلالتكم فى طلب كهذا، إنه من طراز فريد من الفتيان، لا يعبأ بهذه الأمور الهامة فى حياة الناس، جل همه علوم الإدارة، وفنون الحرب، ومجالس العلم ولدك جلالة السلطان ينفق أوقاته مع من يكبرونه السن، انظر إلى مجالسه، إنه لا يصاحب أقرانه فى السن، أصحابه من الفنانين والشعراء، والعلماء إنه اختار الطريق الشاق.

قال السلطان وقد تبداه الحزن: أخشى يا شيخ آق أكون قد ظلمته حين دفعت به فى هذا المعترك، الذى يجعله يحيا حياة غير طبيعية لا يتمتع فيها بمراحله العمرية.

قال الشيخ: لا أحسب جلالتكم قد دفعته، إنما هى رغبة دفينة فى ولدك، وفطرة جُبلت فيه، ورعاية جلالتكم له هى التى فجرت تلك المعانى التى هى بداخله.

قال السلطان مشدوها بالكلام: وماذا تريدنى أفعله إزاء ما سحبتنى فيه عن حديث الزواج؟

قال الشيخ: تأخذ جلالتكم ولدك من يده، لتضعه أمام أنسب البيوت، التى ترى فيها فتاة مناسبة له فتزوجه إياها.

وأدار السلطان مراد الثانى ، كلام الشيخ آق فى رأسه، ورأى أن زواج ابنه قد يزيح شبح الحزن ، والرتابة ، اللذان خيما على القصر، ونظر السلطان فى البيوتات التى حول دائرته، ليتخير أنسبها فيطرق بابه طلباً للمصاهرة.

وبعد طول تمحيص ونظر، وأخذ رأى ولده محمد، استصحب السلطان ابنه الأمير محمد ، ابن السابعة عشرة فى صيف عام (١٤٤٩م) إلى بيت الأمير التركى (نور جاتير) أحد أعيان الأناضول، وطلب منه يد ابنته – مكرمة – زوجة لولده محمد.

وعاد جو الاحتفالات والأفراح ثانية على القصر ، بعد أيام طويلة مرت ، كان يسودها الحزن على وفاة الأم، ورآها السلطان مراد مناسبة سارة ، لترقية ولده إلى رتبة (أمير لواء، بالتركية – سنجق بك) ثم أسند إليه حكم أكبر ولايات الدولة أهمية من الناحية الاستراتيجية (ولاية مانيسا) التى لا يتقلد إمارتها إلا من كان برتبة أمير لواء.

وأخذ الأمير محمد زوجته – مكرمة بنت نور جاتير – وغادر القصر الهمايونى، متوجها إلى مقر عمله الجديد، بولاية (مانيسا)، فتلك الولاية مفتاح الأمن الداخلى للبلاد، ذلك أن قوة وعصب الدولة العثمانية ، يكمن فى ولايات الأناضول، وكلما حدث تمرد داخلى فى الأناضول ، لانشغال الجيش العثمانى بحروبه فى أوروبا والبلقان، كانت (مانيسا) هى القاعدة التى تنطلق منها القوات الخاصة ، لقمع تلك الانتفاضات ، أثناء انشغال الجيش النظامى فى حروبه الخارجية، فهى مفتاح الأمن فى الشطر الآسيوى للدولة العثمانية ، رغم بعدها الكبير عن العاصمة (أدرنة).

وبعد أن كان الأمير يتواصل بالزيارات ، والمراسلات على والده، إذا بانقطاع الأخبار فجأة، ففي صباح يوم حزين من أيام عام (١٤٥١م) يأتى الخبر المؤلم .

وفاة السلطان مراد الثانى بعد معاناة مع المرض أخفاها عن ابنه.

وتلقى الأمير محمد النبأ ، وهو حزين بثبات وقوة ، وضرب مثالاً رائعاً فى إدارة الأمور فى الظروف الحالكة، فها هو الآن صار ابن التاسعة عشر، وقد خبر الكثير وتعلم التاريخ واللغات ، ودرس علوم عصره، وتولى سلطنة البلاد من قبل ، وهو فى سن صغيرة وخاض غمار الحروب، ومارس درب القيادة ، وها هو يأتيه الخبر وهو فى (مانيسا) الولاية التى تثقل من يحكمها، تثقله خبرة ودربة، فيعود الأمير محمد بن مراد الثانى مسرعاً ، إلى حيث مصدر النبأ المفجع ، ويُعد مع أركان دولته مراسيم جنازة السلطان العثمانى مراد الثانى، الذى حكم البلاد مدة ناهزت العشرين عاماً.

وفى موكب مهيب قاده السلطان الجديد محمد شيع السلطان مراد الثانى إلى مثواه الأخير، ونقل جثمانه إلى (بورصة) العاصمة القديمة، ودُفن فى (بيشيل ترية – المقبرة الخضراء) مدافن آل عثمان، وعاد السلطان الجديد محمد بن مراد الثاني إلى القصر الهمايونى بأدرنة وبايعه الجميع على عرش البلاد سلطاناً.



ودان له الأمر كله

(٨)

أذهلت السرعة الخاطفة التى انطلق بها ولى العهد، هو وقواته العاملة تحت إمرته فى ولاية مانيسا والولايات الأخرى، التى مر بها موكبه، وأذهلت أولئك المتربصين بالبلاد هنات ضعف، أو لحظات توتر، ووضعتهم فى حالة لا تقوى على فعل شىء، والطامعين فى حداثة سن ولى العهد داخل البلاط الحاكم، فضلاً عن العدو الخارجى ، الذى يرقب ما يدور فى الداخل عن كثب، وفى مثل هذه الظروف الدقيقة، الحسم وحده هو القاطع، والمبادرة وحدها هى من تقرر، والمباغتة وحدها هى من تقول كلمة الفصل.

فقد تفتق ذهن ولى العهد لما قد يحدث فى حالات فراغ السلطة، خاصة فى تلك الظروف، التى هو فيها بعيدا عن العاصمة التى تدير كافة الأراضى، والأقاليم المترامية الأطراف.

وكانت تلك هى البداية، بداية عهد الشباب للدولة العثمانية، التى آل سلاطينها على أنفسهم ، عبء إسقاط معقل الشر المحرض دوما على الإسلام والمسلمين – القسطنطينية – فها هو ولى العهد يتحول سريعاً إلى الصدارة ، ويعتلى عرش السلطنة، عقب سماعه نبأ الوفاة.

فقد جاء بقوة من خيرة قوات العثمانية، وفاجأ الجميع أمام القصر الهمايونى بأدرنة، فاجأهم بوقوفه على الأمر ، وخلفه قوة تهز الأرض هزاً، الأمر الذى كبت نوايا المتآمرين فى صدورهم، فى الوقت الذى أثلج صدور المخلصين، الذين عملوا فى طاعة أبيه، فلم يعد أمام الجميع سوى الإذعان للواقع، والإعلان عن بيعتهم له سلطاناً على البلاد ، باسم السلطان (محمد الثانى).

ووجد أكبر رأس فى السلطة – جاندرلى خليل باشا – الصدر الأعظم نفسه أمام واقع خشيه كثيراً ، فكان جاندرلى خليل دائم الشكوى للسلطان مراد من تصرفات ابنه، فخشى بعد أن صار

السلطان محمد الثانى قدراً مسلطاً عليه، خشى أن يعزله، وترقب اللحظات التى كادت أن تطبق عليه، وإذا بالسلطان محمد الثانى يصدر أمره بإبقائه فى منصبه، ومتمنياً له التوفيق معه ، والتعاون لصالح البلاد.

وتعد مثل هذه الخطوة ، من بواكير الحكمة التى ورثها عن أبيه، فقد أراد السلطان محمد الثانى ، أن يبدأ عهده الجديد بشىء من الحنكة، حين يتخذ قراراً بإبقاء الوزير الأول متجاوزاً العديد من المواقف العدائية، التى كان جاندرلى خليل يتخذها ضده فى حياة أبيه السلطان مراد الثانى، ولعله بتلك البداية أراد أن يطمئن أعوان هذا الرأس الكبير ، كى يضمن ولاءهم فى المرحلة المقبلة، ليتفادى بذلك القلاقل الداخلية،وتستقر أمور البلاد الداخلية.

ودخل السلطان محمد الثانى ابن التاسعة عشرة القصر، الذى طالما ترعرع فيه طفلاً، وصبياً، وسلطانا بوصاية أبيه فى حياته، إنها الأقدار الإلهية التى تخفى من الحكمة ما تخفى، إنها الأقدار التى يدفع بها الله ﷻ هذا الشاب دفعاً يتجلى فيه الإعجاز الإلهى بما تحمله الكلمة من معنى.

بعد أن فرغ السلطان محمد الثانى من مراسيم الجنازة المهيبة، التى ودع فيها العثمانيون سلطاناً عظيماً، ورعاً، تقياً، جلس مجلس أبيه يتلقى التعازى والتهانى معاً، وبدأت تتقاطر عليه وفود العالم، تهنئه بالجلوس على عرش البلاد.

جاءته التهانى من الإخوة فى المشرق الإسلامى، والأصدقاء فى أوروبا، حتى الأعداء والمتربصين بدولته، أرسلوا تهانيهم إليه، بل إن الأعداء كانوا أكثر حرصا من غيرهم على تهنئة السلطان بشىء من التقدير والإجلال، فأرسلوا إليه وفوداً عالية التمثيل الدبلوماسى، علهم يصرفونه عن طموح آل عثمان الجامح للقضاء على شوكتهم.

فأرسل إمبراطور القسطنطينية – قسطنطين الحادى عشر –

وفداً يرأسه شقيقه الأمير ديميتريوس حاكم المورة، وتلك بمثابة رسالة جس نوايا السلطان الجديد ، الذى كان بارعاً لأقصى درجة فى التمويه ، وصرف الأنظار عن مكنون النوايا، فلقى وفد قسطنطين من حسن الوفادة والتكريم ، ما ترك لديهم انطباعاً، بأنه لا ينوى الاستيلاء على القسطنطينية، وأرسل بابا روما (نيقولا الخامس) رسالة تهنئة حملها أكبر مساعديه (البطريرك كالكتس) كما أرسل ملك فرنسا (شارل السابع) وملك إنجلترا (هنرى السادس) رسالتى تهنئة وتبريكات، وعلى درب التقدير والإجلال، أرسل (الدوق – فرانشيسكو فوسكارى) حاكم البندقية، و(جيوفانى لوميللينو) حاكم جنوا، أرسلا وفدين عاليين التمثيل الدبلوماسى.

ورويداً رويدا ، خلت القاعة الرسمية بالقصر ، والخاصة بالضيوف من الوفود والرسل ، وأمر السلطان محمد الثانى بعقد جلسة سرية ، لوضع الأطر الرئيسية لمتطلبات المرحلة المقبلة – جلس السلطان على أريكة العرش، وجلس وزراء القبة الأربعة فى مجلسهم، وخلفهم وعلى أجنابهم ، أخذ باقى البلاط مكانهم، منصتين مستمعين لقول السلطان الجديد.

وبدأ السلطان محمد الثانى بن مراد الثانى حديثه قائلا (الحمد لله به يبدأ القول، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى – صلوات الله وسلامه عليه، به يبدأ الجمع المبارك، إنه ليشرفنى ويسعدنى، تلك الثقة الزائدة التى تبدت فى بيعتكم لى سلطانا على البلاد ، الأمر الذى يضع على كاهلى عبئاً ثقيلاً أعاننى الله على حمله ، وأعانكم معى على إنجاز ، ما هو صالح لأمتنا ، حديثى إليكم فى مستهل حكمى ، سينصب مباشرة إلى الأولويات التى سنعمل عليها، والتى ستضع أمامنا جميعاً خطاً للسير ، سيجمع كلمتنا رغم التباين فى الرأى ، الذى هو من الظواهر الصحية، التى تكسبنا المرونة فى التحرك، وسيوحد جهودنا فى اتجاه الهدف ، الذى يرموا إليه الجميع.

أنتم تعلمون أن دولتكم العظيمة ، التى رفعت راية الإسلام وانخذته شريعة، وعقيدة ومنهاجاً، باتت الآن شبحاً ، وعدوا لكل من يخشى هذا الدين الحنيف، فإذا كان أعداء هذا الدين مختلفون فيما بينهم فى كل شىء، فلن تجدوهم مختلفين فى عدائهم لكم، فعليكم إذن أن تتوحدوا على كلمته، مهما تباينت وجهات نظركم، ففى النهاية كلكم هدف لهؤلاء الذين يريدون أن يطفئوا نور الله.

أيها الحضور الكرام، إننا نسعى إلى السلام، وبسطه فى ربوع الأرض، لتنعم به البشرية، وتلك تعاليم ديننا الحنيف ، فإذا اضطررنا للحرب ، فما ذلك إلا لجلب هذا السلام، وإذا كانت تلك الحرب ، التى دُفعنا إليها دفعاً هى وصلتنا للسلام، فتلك الحرب إذن ضريبة دينية ، واجبة السداد، وتستحق منا أن نؤديها على أتم وجه وأكمله.

إننا الآن لن نستطيع أن نصل إلى هذا السلام، ولا أن نحلم به، مادامت تلك الإمبراطورية العتيدة بيزنطة، بعاصمتها القسطنطينية باقية، ترفرف فوقها رايات حلفائها الأوربيين، أعداء الإنسانية، لن ننعم بالأمن ولا بالسلام مادامت القسطنطينية تتربص بنا الدوائر.

لذا سيكون على رأس أولياتنا فى العمل، فتح هذه القلعة، وإخضاعها للإسلام، لتنعم الأجيال القادمة، بسلامٍ وأمن حقيقيين، أكررها لكم، وعلى مسامعكم، لقد حاول آبائى وأجدادى مراراً فتحها ولم يستطيعوا ، وبقى الخطر جاثما علينا ، ولكن ما وقع فيه آبائى ، لن أكرره ، ذلك كلما استعصت القسطنطينية عليهم ، حوّلوا جهادهم حولها وخلفها، وتركوها إلى حين، لن أفعل كما فعلوا.

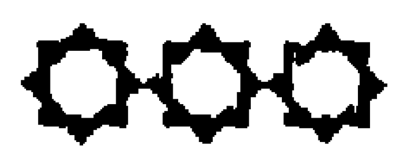
القسطنطينية أولاً، وبعدها ستسقط القلاع المتمترسة خلفها، رويداً رويداً ، إن فتحها حلم إسلامى ، راود الأمراء والخلفاء والملوك.

وعملوا عليه بجد وحزم ، وها أنا سائر على دربهم بنفس الزاد ، ونفس التصميم ، لعل الله يجعل فتحها على عهدنا.

أيها الجمع المبارك، لن أطيل عليكم أكثر من هذا ، لكنكم تعملون، وتعلمون أكثر مني فى هذا الذى تحدثت، جزى الله الجميع خير الجزاء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته).

وما إن فرغ السلطان الجديد من كلمته، التى أذهلت الجميع، إلا وهبَّ الحضور وقوفا بعفوية مطلقة ، وانطلق التكبير والحماس، يرج جنبات القاعة الرسمية، ومن هنا وهناك انطلقت صيحات التأييد ، والإعجاب ، بالسلطان الشاب فانبرى الصدر الأعظم – جارندرلى خليل باشا – وقال: أدام الله عزك، وجعلك زخراً للدين والوطن.

وأعقبه القائد المتحمس – البكلريك/ تورخان باشا – القائد العام للقوات العثمانية قائلاً: نحن جنودك جلالة السلطان، وسائرون خلفك، إما النصر أو الشهادة، وغير بعيد عن حومة الحماس والإعجاب، قام الشيخ الجليل مرشد الخاقان، وقال: لن نقول لك كما قال بنو إسرائيل، لنبيهم موسى: "اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ها هنا قاعدون" بل سنقول لك ما قاله الصحابى الجليل (المقداد بن عمرو) يوم بدر حين قال: "يا رسول الله امض لما أمرك الله، فنحن معك مقاتلون، فوالذى بعثك بالحق لو سرت بنا على برك الغماد ، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه" .



العون يأتي من بلاد الأعداء

(٩)

وتمر الأيام سريعة، ولا يمر يوم، بل لا تمر ساعة، إلا ويستثمرها السلطان الجديد فى عمل شىء، يقربه من هدفه الذى وضعه نصب عينيه (فتح القسطنطينية) وتدريجيا، تحول جيش البلاد إلى هيئة غير الهيئة التى كان عليها، ضخت فيه دماء جديدة من شباب آل عثمان، ليكونوا عصبا فى الولاء، وعينا للسلطان داخل مفاصل الجيش، وجعلهم قادة فى المرتبة الثانية، خلف القادة القدامى، الذين رافقوا أباه، جعلهم خلفهم كى لا ينفرط عقد الخبرة العالية، التى يتصف بها رجالات الصف الأول، فيفقد الجيش اتزانه وثباته، وبذا يكون الجيش جمع بين ميزتين أكسباتاه قوة على قوته – الصف الأول كبار القادة، معهم دفة التمرس، وحنكة القتال، والصف الثانى القادة الشباب من آل عثمان، لديهم الحماس، والولاء المطلق.

وكان وراء هذا التوجه، رأى الشيخ آق شمس الدين، الذى أشار عليه بذلك وانسحب هذا الأداء الجديد فى الحكم، ليشمل مناحى البلاد كلها، وتسامعت دول الأعداء بحالة الاستقرار التى عمت أرجاء العثمانية فى فترة وجيزة، فقد طالت حالة الأمن جاليات الفرنجة، فسلم الغرباء، وكذا الأسر المنتمية لبلاد الأعداء، فأتى مردود ذلك بالنفع على البلاد، حين التجأ إلى السلطان المهندس المجرى (أوربان) ومعه تصميم أحدث مدفع عملاق،وبرفقته مهندس معمارى بيزنطى متخصص فى تشييد القلاع يُدعى (كريستوبول) ومعهما تاجر من البندقية، اسمه (جورج يوجين).

نزل هؤلاء الثلاثة عند الشيخ آق شمس الدين، ولم يصدق الشيخ نفسه من فرط السرور، فالجيش فى حاجة لأولئك النفر، وعلى فوره الشيخ يرتب للقاء يجمعهم بسلطان البلاد، ليحوز السبق فى هذا المضمار.

وإذا بهم ذات صباح، فى قاعة الضيوف بالقصر الهمايونى، أمام

السلطان محمد الثانى، وحوله كبار البلاط والتشريفات.

ويرحب بهم السلطان فى بشٍ وودٍ ويقف الثلاثة فى صمت ، كى يختار أحدهم للحديث بعد أن قدمهم الشيخ آق

قال السلطان لأوربان: منذ متى وأنت تعد تصميم مدفعك هذا الذى سمعنا عنه؟

قال أوربان: جلالة السلطان، لقد عكفت على تصميمه ما يربو على الخمس سنوات.

قال السلطان: وما الذى دفعك لفعل ذلك؟

قال أوربان: منذ تخرجت فى جامعة (سالرنو) بإيطاليا فى القسم الحربى، وأنا أعمل مهندساً فى صناعة البارود والمدافع، فوجدتنى لا أرى للمدفع الحالى أية نقلة نوعية فى الحروب، فالحصون هى نفس الحصون القديمة، تصمد أمام طلقات المدافع، فشدنى ذلك على تصميم مدفع عملاق له القدرة على تحطيم الحصون وأسوار القلاع الضخمة.

قال السلطان: وهذا المشروع من كان يرعاه لك؟

قال أوربان: جلالة السلطان، لقد فقدت بيتى (عائلتى) بسببه، فقد كنت أقيم التصميم على ألواح خشبية فى حديقة منزلى بالعاصمة المجرية – بودابست – وتسبب ذلك فى انقطاعى عن العمل لفترات، وقلت مواردى، وضاقت زوجتى بى ذرعاً، وذهبت إلى دار أبيها، وواصلت فى حديقة منزلى حتى أنجزت ما عزمت عليه.

وتبدى على وجه السلطان الإعجاب بهذا الإصرار والتصميم.

قال: وهل عرضت مشروعك على أحد غيرى ؟

قال أوربان: نعم جلالة السلطان عرضته على القائد المجرى –يونكى هونياد – فرفضه متعللاً بعجز الميزانية، ولكنى لم أقطع الأمل، رحلت إلى القسطنطينية وعملت فى جيش الإمبراطور، وعرضت تصميم المدفع على الإمبراطور قسطنطين.

وهنا قاطعه السلطان: ورفضه أيضاً الإمبراطور ؟

قال أوربان: لا جلالة السلطان، الذى رفضه قائد قواته –لوكاس نوتاراس – وقال لى فى حضرة الإمبراطور : "إن لدينا مدافع صغيرة كثيرة العدد، وهى وإن كانت بدائية، إلا أننا لا نعول عليها كثيراً ، فاعتمادنا الأساسى على (النار) نار الروم التى نطلق عليها (نار غريغوار) وتلك لها تركيبة نحتفظ بها منذ زمن بعيد وهى وسيلتنا الفعالة فى الحروب".

قال السلطان: وما كان رأى الإمبراطور فى هذا؟

قال أوربان: سكت ولم يعلق بكلمة، فأدركت أن الكلمة، هى كلمة (لوكاس القائد) ومادام القائد رفض العرض، فلن يعارضه الإمبراطور الذى يثق به.

وتوجه السلطان محمد الثانى بحديثه إلى كريستوبول.

وقال له: وأنت كريستوبول المهندس المعمارى البيزنطى، لِمَ تركت القسطنطينية ، وقد كنت تعمل فى جيش الإمبراطور ؟

قال كريستوبول: كنت جلالة السلطان أعمل فى قسم التشييد الحربى، بل كنت فى أول أمرى رئيس هذا القسم، وكان عملى منحصراً فى تشييد القلاع ، التى ينصبون عليها القاذفات الميكانيكية، تلك التى تقذف بكرات النار الإغريقية ، وخشى من طموحى ، وقربى من الإمبراطور القائد – لوكاس نوتاراس – .

فلعب برأس الإمبراطور ، فوضعوا مكانى مجموعة من المنهدسين، ووجدتنى أمام الإمبراطور ، ليكلفنى بتشييد القصور، ونافورات المياه، وحمامات السباحة، فتركت العمل فى البلاط كله.

ثم جاء دور التاجر جورج يوجين، ليوجه السلطان حديثه إليه.

قائلا: وأنت جورج يوجين التاجر البندقى؟

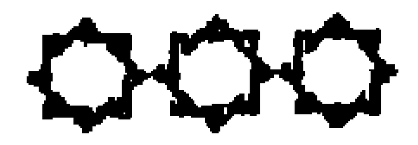
قال جورج: إننى جلالة السلطان تاجر منذ النشأة، وطوّفت فى

بلادكم العظيمة تلك، وأعرف عنها الكثير، وطوّفت فى بلاد أخرى كثيرة فى المشرق والمغرب ، وإنى لعلى علم جيد بسلاطين آل عثمان الذى ينحدر جلالتكم من أصولهم، وسمعت الكثير عن سلطان الدنيا، والد جلالتكم السلطان المعظم مراد الثانى، وأعلم كم تُقدرون العلم وأهله، وكذا أعلم مدى احترامكم للإنسان أيا كان موطنه ودينه، الأمر الذى دفعنى للإتيان بأعز صديقين لى إلى هذه البلاد الآمنة الرحبة، لخشيتى عليهما فى موطنيهما.

وتبسم السلطان الذى شده فى إعجاب ، لباقة التاجر جورج وأدبه الجم، ثم استدار إلى ناحية قائد القوات العثمانية –تورخان باشا – وأشار إليه بالقدوم نحوه، ويدنو القائد من السلطان الجالس على أريكة العرش فيقول السلطان له همساً: انظر تورخان إلى ضيفىَّ هذين ، المجرى والبيزنطى، خذهما إلى أحسن مكان للضيافة، وتبين أمرهما.

وانخرط الرجلان أوربان وكريستوبول فى الجيش العثمانى، وحامت حولهما دون أن يدريا عيون المخابرات السلطانية فقد يكونا مندسين من قبل الأعداء، وبدت مواهبهما تتجلى فى ميادين العمل، ووصلت التقارير إلى السلطان بحاجة الجيش لهما، وعلى فوره السلطان بوأهما مكانة عالية فى جيشه، بل إنه وضع إمكانات هائلة تحت تصرفهما، أما التاجر جورج يوجين الذى أصطحبهما إلى البلاد، كافأه السلطان بأن منحه مرسوما سلطانيا بتمويل ثكنات الإنكشارية بالغلال والمؤن، وإقامة مقر تجارى معفى من الرسوم بمدينة بورصة.

وذات يوم استدعى السلطان المهندس المجرى أوربان، وكلفه رسميا بتنفيذ تصميمه (المدفع العملاق) كما استدعى زميله –كريستوبول – وكلفه وضع تصميم للقلعة (قاطعة الرقبة) بل إنه انطلق معه على أرض الواقع، وأراه المنطقة التى ستشيد عليها.



السلطان بين أهله

(١٠)

ويوما بعد يوم، تتأكد الوجهة التى انتحاها السلطان، منذ أن ولى العرش، إنها الوجهة العسكرية، التى جعلها السلطان على رأس أولياته فى الحكم، وكيف لا؟، وقد وضع نصب عينيه هدفاً محدداً، رأى فيه التحول والمخرج، التحول إلى وضع جديد فيه تكون الدولة إمبراطورية ، تبسط سلطانها على قارتى آسيا وأوروبا، والمخرج من حالة الترقب، وردات الفعل، ودحر المؤامرات.

ولن يتحقق ذلك إلا بالوصول إلى الهدف – فتح القسطنطنية وإخضاعها للمسلمين العثمانيين – فأولى السلطان محمد الثانى بن مراد الثانى الإعداد العسكرى غاية اهتمامه.

فها هو المهندس أوريان قدَّم للبلاد بعد عام من عمله فى سلاح المدفعية، مدفعاً عملاقاً لا تملكه أياً من دول العالم المتحضر.

وينتقل السلطان محمد، وبرفقته قادته إلى حيث القاعدة البحرية للأسطول العثمانى فى ميناء (غاليبولى) والتى تقع على الشاطئ الأوربى، جنوبى بحر مرمرة من شبه جزيرة غاليبولى.

وداخل منطقة قيادة الأسطول؛ حيث الميناء الحربى (أسكداربولو) كان فى انتظار السلطان، طاقم القيادة البحرية تحت إمرة (القبودان داريا – بلطه أوغلو) الذى أطلعه على سير خطة تعديل السفن، التى كان قد أمر بها السلطان، ليقف بنفسه على جهوزية البحرية، وانتقل بعدها إلى القوات البرية ثم عرج يطوف الولايات العثمانية لتفحص أحوالها، حتى الأسواق نزلها بنفسه، وعمت السكينة أهالى البلاد، كلما رأوه يحط بموكبه فى مكان، ونال منه الجهد مبلغاً شديداً، إثر تلك الجولات الميدانية.

ويدخل عليه الشيخ آق شمس الدين، ويبادره القول : جلالة

السلطان، رفقاً بنفسك، إن لبدنك عليك حق، ولأهلك عليك حق، فاقتنص من ثمين وقتك ، ما تروى به ظمأ اشتياق الأهل للجلوس معك.

وتبسم السلطان، كأنما رأى فى الشيخ قراءة لما يدور فى خلده، فقال: صدقت يا شيخ آق، لقد أخذتنى دوامة العمل، حتى إننى اشتقت لأهلى وأحبائى، وقطع حديثه فجأة وقال له: اسمع يا شيخنا الجليل، الجمعة القادمة إنشاء الله ستكون مدعواً فى حضرة الأهل والأحباء هنا فى القصر، سأجمعهم على غداء لنجلس إليهم.

قال الشيخ: دعك من أمرى، فلتفعل جلالتكم هذا مع أهلك، هذا يوم خاص لآل عثمان.

قال السلطان محمد: كيف تقول هذا ياشيخنا، وهل أنت إلا واحد منا، بل إنى أعتبرك فى مقام والدى السلطان مراد، فأنت معلمى الأول، ومن قام على تنشئتى فكرياً.

قال الشيخ آق وقد كست وجهه، ذى اللحية البيضاء المشرق بالإيمان ملامح الخجل: أستغفر الله يا سلطاننا لا يليق بى المقام لأن أكون فى منزلة السلاطين والملوك!!

فرد عليه سريعاً السلطان: وهل الملوك والسلاطين سوى عبيد لله كسائر العباد؟ وإن كنت تتحدث عن المقام، فهل هناك أعلى من مقام العلماء؟ إنكم كما علمتنى ورثة الأنبياء.

وطرق الشيخ آق النظر إلى الأرض، وقد غمره الحياء، من تواضع السلطان الشاب وأدبه الجم، ثم قال له: إنه لمن عز الإسلام، وحسن الأقدار، أن يلى أمر المسلمين سلطان، عادل، تقى، ذكى، يغار على الدين مثلك، إنها أمة رشيدة تلك التى ستسير خلفك أيها السلطان.

قال السلطان محمد الثانى: فلتجب دعوتى إذن، ولتكن فى

مقدمة الحضور لتبارك الغداء، غداء يوم الجمعة، بعد أن تتم الصلاة بالناس.

وأتى يوم الجمعة، وفى حديقة القصر الهمايونى؛ حيث وضعت الموائد أمام الآرائك، احتشد الأهل والمقربون، وهم قد أتوا من أماكن عدة بعيدة، تلبية لدعوة السلطان الشاب، فمنذ وفاة أبيه، لم يحدث أن اجتمعوا معاً، ليس تقصيراً من السلطان الابن، وإنما الكل كان يقدر الظروف التى حالت دون جمعهم.

ذلك أن السلطان كان جل همه أن تستقر الأمور، ويضع العربة على الطريق، وبعدها تعود الأمور لطبيعتها، وإذا كانت هناك من دلالة بارزة فى ذلك الجمع، فهى تلك الدلالة التى ينطق لسان حالها، بتطمين آل عثمان بأن العهد الجديد لن يشذ عن القاعدة التى أرساها سلاطين آل عثمان، على طول عهودهم، الترابط العائلى، واللحمة والالتفاف ، حول السلطان الرمز.

ويعود السلطان محمد من صلاة الجمعة، وبرفقته لفيف من العلماء وأقاربه، الذين تركوا زوجاتهم فى القصر، ريثما يؤدون الصلاة مع السلطان، ويدخل السلطان فيجد على رأس منتظريه، زوجة أبيه – الأميرة مارا – فهى بمثابة الأم الثانية له، تصافحه فى ود وحنان، وفى لحظات حارة بالشوق.

يحس السلطان فجأة أنه مازال طفلاً فى هذا الموقف، الذى جرى فيه شريط الذكريات، وكأنما المهام الثقال التى على كاهله، هى التى سحبته سحباً من طفولته، لتضعه فى معترك الأحداث الجسام.

ويبادر زوجة أبيه الحديث ، وهو باسم مسرور بلقائها: كيف حالك يا أماه؟

وترد عليه الأم العطوف التى انهمرت دموعها، دموع الفرح أن رأته فى الصورة التى حلم بها والده، قائداً عظيماً، وسلطاناً مهاب

الجانب، ودموع الحزن لمخالجة الذكريات الأليمة لقلبها النابض بالحب، تذكرت – مارا – زوجها المحب وهو يمسك بطفله الصغير محمد، ويصطحبه معه فى أغلب زياراته لها فى قصرها ببورصة، ها هو ذاك الطفل صار سلطانا مكان أبيه، وتماسكت الأميرة – مارا – ومسحت دموع فرحها، وقال بصوت خافت: كيف حالك ياولدى؟ رحم الله أباك، كم كنت أتمنى أن يراك فى حالتك تلك.

ورد السلطان محمد الكلمات الحانية بأطيب منها، قال فى وداعة الابن البار: بوركت يا أماه، وهوى على يديها يقبلها، وعلى فورها سحبتها، وربضت على كتفه بيدها، كأنه العناق الحار بين الأم وابنها.

ثم سار السلطان محمد الثانى، بعد ذاك اللقاء الحار، ليجد زوجته الأميرة – مكرمة بنت نور جاتير – تجلس فى حديقة القصر، التى عجت بالزوار، وحولها عماته، وأطفاله الأربعة، يحفون حول عماته، ويقترب منهن السلطان ويتقدم نحوهن، واحدة تلو الأخرى، يسلم عليهن، فبدأ بعمته الأميرة – جهاد – كبراهن، وكانت تجلس إلى جوارها الطفلة (جوهر خان) بنت السلطان محمد، وانطلق نحوه يحبو (بايزيد، وقورقود) لا يستطيعا المشى، ابنا السلطان وثالثهما رضيع تحمله زوجته يُدعى (جم).

ولا ينسى السلطان الشاب الوفى، تلك السيدة العجوز الفاضلة، التى سهرت عليه وقامت على راحته، مربيته (أم كلثوم هاند خاتون)

فيسأل عماته عنها، فأخبروه : "أنها بداخل القصر فى جناح الحريم، تجلس مع النسوة اللائى يخدمن الأميرات" فأرسل من يناديها، وقال السلطان لعمته جهاد: لِمَ تركتموها تجلس هناك مع الخدم؟

قالت الأميرة جهاد: ذلك يا ولدى شأنها، هى ترى راحتها فى ذلك.

قال السلطان: لا، لا تقولى هذا يا عمتى، لابد وأنها شعرت بأنها ليست واحدة منا، لذا آثرت الجلوس مع الخدم، كانت أمى رحمها الله لا تجعلها تبارح مجلسها قط.

وإن هى إلا لحظات، وأتت السيدة العجوز، متباطئة الخطى، لا لترددها فى اللقاء، وإنما لاعتلال صحتها، أتت والأرض لم تسعها من فرط السعادة، لما أبلغوها بشوق السلطان لرؤيتها، وما إن رمقها السلطان وهى مقبلة نحوه، فى رفقة الخادمات اللائى خشين عليها المسير وحدها، إلا وانتفض من مجلسه مسرعاً نحوها، الكل فى حديقة القصر راح ينظر إلى هذا اللقاء الحار، أسرع السلطان تجاهها، وهوى عليها وهى غير مصدقة، وانفرط بكاءها، وعانقها كأنما عناق الأم لابنها، وقالت له: كيف حالك يا سلطاننا العزيز؟

قال لها: قولى يا أماه، كيف حالك يا ولدى؟

قالت وهى تبكى: رحمة الله على والديك اللذين ربيا فيك التواضع، والوفاء.

ورد عليها السلطان العالم المتأدب: بل أنت يا أماه من وضع فىَّ تلك الخصال الجميلة، أنت يا أماه من سهر على راحتى، وأطعمنى.

قالت وهى تبكى: بوركت يا ولدى، بوركت وجعل الله فى أيامك النصر، والعزة للإسلام وأهله.

وأمسك السلطان محمد الثانى بيد مربيته، وسار بها نحو حشد الأقارب الملتف فى الحديقة، والكل ينظر إليه فى إعجاب كبير، ثم أجلس مربيته – أم كلثوم – إلى جواره، وقال لزوجته: تلك التى ربتنى حتى اشتد عودى.

جلس السلطان وسط أبناء العمات، وابن الخال وزوج الأخت، محتفيا بهذا الجمع العائلى، الذى شاركهم الحضور فيه الوزراء وكبار القادة، ويدور الحديث فى كل ناحية وفى غير وجهة، حتى أتى موعد الغداء، فأذن السلطان لضيوفه بالتوجه إلى قاعة الطعام داخل القصر، وهى مقسمة إلى جناحين، إحداهما للرجال والثانى للنساء.

وبعد أن أمضى الجميع يوماً هادئاً ، بعيداً عن ضغط العمل والتوتر، إذا برئيس حرس القصر يعدو مسرعاً تجاه السلطان، الذى بدأ لتوه فى توديع زواره.

قال له : سيدى السلطان ، هناك أنباء غير سارة، قد وصلتنا الآن !!

وفى ثبات وتمالك أعصاب قال السلطان: وما ذاك؟

قال الرجل الذى ملأ الذعر وجهه: لقد حدثت اضطرابات فى بعض الولايات بالأناضول، وهناك الآن وفق ما وردنا صدامات بين شرطتنا وبعض مجموعات من (حزب الدوشيرمة) التى ألبت البلاد على الحكم.

وصاح السلطان بصوت عال: أين القائد زاجان، ائتونى به على الفور؟

وينطلق قائد حرس القصر ناحية الحديقة فى الخارج ليجد –السنجق أول زاجان باشا – قائد شرطة الولايات يهم بمغادرة حديقة القصر مسرعاً يستقل عربته فى الخارج، فعاد لتوه إلى السلطان.

قال له السلطان: أما سمعت بالذى حدث الآن ؟

قال السنجق أول زاجان باشا: قد وصلتنى الأنباء التى وصلت جلالتكم، وكنت متوجهاً لتوى لمركز قيادتى.

قال السلطان: ولِمَ لم تبلغنى بها وقد عزمت المغادرة؟

قال زاجان: لم أرد أن أعكر على جلالتكم صفو احتفالكم هذا، فأرسلت نائبى لأرض الأحداث، وانى لعلى ثقة باحتواء الأمر .

قال السلطان فى حسم: إذن فاذهب، ووافينى بالأخبار لحظة بلحظة، وإن شعرت بأن الفتنة أكبر من أن تحتويها شرطة الولايات، أبلغنى على الفور لأرسل قوات الإنكشارية لتنضها.

ثم صمت السلطان لحظة، ثم أعاد تعليماته لقائده وهو يوصيه قائلا: يا زاجان تحاشى الدماء بين الأهالى، فإنى أعرف تماماً هؤلاء الذين أثاروا تلك الفتنة، إنهم الدوشيرمة، أولئك الذين يتربصون بالبلاد هنات ضعف أو غفلة.

وانطلق زاجان باشا إلى مقر قيادة الشرطة بالعاصمة أدرنة، ومن هناك راح يصدر تعليماته لباقى الولايات، التى تفجرت فيها الفوضى.



القلعة قاطعة الرقبة

(١١)

وجولة بعد أخرى، يتبدى للشعب حكمة ، وحسم السلطان العظيم، فبعد أن عمت الفوضى ولايات الشطر الآسيوى (الأناضول) من العثمانية، بفعل حزب الفتنة والخراب (الدوشيرمة) أولئك النفر غير المؤصلين تركياً، فهم من أحفاد البيزنطيين الروم ، والأوربيين من الدول المجاورة للعثمانيين، والذين دخلوا الإسلام – دين الدولة – خوفاً من التمييز، وقد أخطأ عن غير قصد ، سلاطين آل عثمان على مدار فترة زمنية، ليست بقصيرة، أن سمحوا لهم بالانخراط فى وظائف الدولة الرسمية،وبمرور الأيام وصل بعضهم لأماكن صنع القرار فى ولايات الدولة ، الأمر الذى مكنهم من تأليب الناس على سلطة الدولة، وكانوا يقفون خلف الستار متخفين، فإذا ما اشتدت الثورة، وبدا لهم أنها آخذة فى الصعود ، ظهروا أمام الملأ.

لقد استطاع السلطان محمد الثانى أن يقمع ثورتهم، ويلقى القبض على رؤوس حزبهم فى سرعة خاطفة، وأنزل بهم قصاص العدالة، فسُحبوا إلى الميادين العامة، وحزت بالسيوف رؤوس التدبير، والتى كانت وراء الفتنة، وأصدر المراسيم العاجلة باجتثاث قادتهم التى تعمل فى مفاصل الدولة، كى يتفرغ لمعركته الأساس – فتح القسطنطينية –

وفى صبيحة يوم من أيام شهر مارس لعام (١٤٥٢م) استدعى السلطان محمد الثانى المهندس البيزنطى كريستوبول.

وقال له: قد أخذت قدراً كافياً لتصميم القلعة قاطعة الرقبة، هل أنجزته؟

قال كريستوبول: نعم جلالة السلطان، قد فرغت منه، وهو قيد نظرة اعتماد من جلالتكم.

قال السلطان: فلتسرع الآن وتحضر تصميمك لأراه.

وانطلق المهندس كريستوبول ليحضر اللوحات الكبيرة التى حوت تصميم القلعة، وجمع السلطان حوله كبار مستشاريه، فى البحرية، والمدفعية، وأشغال البناء ، وأعد غرفة عمل سريعة، ريثما يأتيه كريستوبول بالتصميم.

ويعود كريستوبول ومعه اللوحات الضخمة، وساعده فى حملها نفر ممن هم تحت إمرته ، ونُصبت اللوحات على منضدة كبيرة، أُعدت للخرائط، والتف حول المنضدة، الخبراء والقادة، وراح كريستوبول بعصاه يشرح للسلطان، ويسأله السلطان وتكون الإجابة حاضرة لدى كريستوبول.

وكلما أجاب كريستوبول على السلطان، كلما بدا الحبور والإشراق على وجه السلطان الذى تعلم الهندسة وغاص أغوارها.

ثم انتاب الحضور لحظات صمت، لفت القاعة الكبيرة، المحتشد رجالها حول منضدة الخريطة، انتظارا لما سيقرره السلطان، وفجأة قطع السكون صوت السلطان قائلا: الجميع هنا يعلم كم هى الحاجة ماسة لمثل هكذا قلعة حصينة،وقد أدهشنى تصميمها الدقيق، والذى قدمه لنا المهندس العبقرى كريستوبول، وإنى لأرجو الله العلي القدير، أن يوفقنا على إنجاز هذا المشروع، ويجدر بنا الآن أن نقف وقفة تأمل، لنغترف من معين الماضى، أنصع صفحاته، يوم أن قام السلطان العظيم – بايزيد الصاعقة – بتشييد القلعة القديمة التى أطلق عليها –أناضولى حصار – فى شتاء عام (١٣٩٠م) القلعة التى لولا وجودها، ما شرعنا فى بناء قاطعة الرقبة قلعتنا الجديدة تلك، ذلك لو وفقنا الله فى إتمامها، ستكون القلعة التى صممها كريستوبول فى مقابل القلعة القديمة على الضفة الغربية للبسفور، ومن خلال القلعتين على ضفتى البسفور، يمكننا غلق البسفور.

لذا نقول إن القلعة القديمة (أناضولى حصار) هى التى دفعتنا لتشييد قلعة فى مواجهتها (قاطعة الرقبة) على أرض الروم من ضفة البسفور الغربية، كى نتمكن من قطع يد العون الممتدة لمساعدة الأعداء من ناحية البحر الأسود، عبر الخليج البسفور، ولكن يبقى أمامنا سرعة إنجاز المشروع، فالأحداث تتلاحق من حولنا، لذا قد أصدرت أوامرى بالتحرك فوراً إلى ميدان العمل، والشروع فوراً فى التنفيذ، وفقكم الله لما فيه خير دينكم وأمتكم وبلادكم.

وتمر أشهر، والعمل شارف على التمام، كان السلطان خلال تلك الفترة يتقطع فى زياراته الميدانية لموقع القلعة، العمل كان متواصلاً ليل نهار، وبرزت القلعة على البسفور شامخة، تطل عليه بقوة وتنادى القلعة القديمة التى أمامها على الضفة الثانية للبسفور، تناديها وحدة الهدف.

وفى أول أيام أغسطس من عام (١٤٥٢م) أرسل كريستوبول إلى السلطان بالحضور للوقوف على اللمسات الأخيرة للقلعة.

وانطلق السلطان إلى هناك ، ورابط فى القلعة الجديدة، وسط الجنود والعمال، يواصل ليله بنهاره، حتى فرغ من نصب آخر مدفع كبير.

على إحدى أبراج القلعة فى (١٤٥٢/٨/٢٨م) وها هو الحلم صار حقيقة، وبنيت القلعة قاطعة الرقبة أو ما يسمونها (روملى حصار) أى قلعة الروم، وهى على شكل مثلث ذو ثلاث زوايا، على رأس كل زاوية من الزوايا الثلاث، برج ضخم غطى بالرصاص، سمك جدرانه اثنتين وثلاثين قدما ، وارتفاعه سبعة وعشرون متراً، وبلغ سمك جدران أسوارها حوالى عشرين قدماً.

قلعة منيعة حصينة. ترتفع على سطح البحر حوالى اثنين وثمانين متراً، وتعلو القلعة الثانية التى أمامها على الضفة الأخرى (أناضولى

حصار) ارتفاعاً قليلاً.

ولا يمكن لأى سفينة أن تمر من البحر الأسود إلى البحر الأبيض، أو بالعكس ، تحت النيران المتقاطعة للمدافع المثبتة على الطرفين، دون إذن من الأتراك، لقد دخل السلطان محمد الثانى التاريخ من تلك الزاوية، فبعمل كهذا يكون هو المؤسس لنظام المضايق. خاصة إذا علمنا أن الموقع الذى شُيد فيه القلعتين المتقابلتين هو أضيق نقطة فى خليج البسفور؛ حيث ينخفض العرض فى هذه النقطة إلى ستمائة وستين متراً.



توحيد الكنيستين

(١٢)

فى صبيحة يوم من أيام نوفمبر لعام (١٤٥٢م) يسير الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر وحيداً، فى تلك الحديقة الغناء المورقة، الفياحة بأطيب عطور الزهر، يسير بين ظلال أشجار تلك الجنة الرائعة، وعلى صدره حمل ثقيل، ونفس متعبة، ولعل حديقة القصر المشيد (قصر بلاخرناى) هى ما تخفف عنه ما يكابد، فيختلس من الوقت فيها ما يصرفه عن المناخ المشحون بالتوتر والأخبار السيئة.

يسير ببطء بين أشجارها ، ويديه للخلف مطرق النظر إلى الأرض، وفى رأسه دوران الشوارد من هنا وهناك.

أرادها الإمبراطور خلوة تأملية، يجوب فيها الخاطر بتلك الأحداث التى تدورحول بلاده (القسطنطينية) التى صارت الآن رهينة فى يد القدر، وكأنما نفسه تحدثه قائلة:هل ستتحقق النبوءة فعلا فى عهدى؟

تلك النبوءة التى قضت مضاجع البيزنط منذ أمد، أنه سيأتى يوم يحل فيه غضب الإله على مدينتهم، فتسقط فى يد المسلمين، الآن يتذكر قسطنطين النبوءة ويقول لنفسه: "واخشيتاه" أن تكون النبوءة تعنينى أنا من دون الأباطرة، فيسجل التاريخ يوما أن قسطنطين الحادى عشر، آخر امبراطور لهذه المدينة البائسة التى كانت حاضرة العالم.

ويعود الإمبراطور من خلوته، التى لم تخفف عنه شيئاً بل إنها أججت مخاوفه، يعود إلى داخل القصر، ليجد شقيقه الأمير "ديميتريوس" فى انتظاره، ويدور الحوار بينهما.

قال قسطنطين: الأخبار تأتينا تباعاً، والخطب جلل، وأخشى أن يداهمنا الوقت ، فإذا بنا وحدنا أمام المسلمين الأتراك ، حينها

سنصير فريسة سهلة فى يد السلطان الشاب.

قال الأمير ديميتريوس: ما أعجب له، أن الخطر لن يقف عند القسطنطينية بل سيتعداها ليطال دول أوروبا، تلك التى تتلكأ فى مساعدتنا، بل إنى أراهم وكأنهم يريدون التخلص منا!!

قال الإمبراطور قسطنطين وهو حزين: الأمر كله فى يد البابا (نيقولا الخامس) لو كان متحمساً للذود عن مدينتنا لوجدت الحلفاء تحت تصرفنا، إنه يريد ابتزازنا أنا أعلم ذلك.

قال ديمتيريوس: كيف ذلك سيدى الإمبراطور والخطر على الجميع؟

قال الامبراطو: حاولنا كثيرا إزالة الخلافات بيننا، وسعينا عبر البعثات المتبادلة تحقيق مطلبهم، ألا وهو توحيد الكنيستين، الشرقية الأرثوذوكسية التى أنا راعيها وحاميها، وكنيسة أوروبا الغربية الكاثوليكية التى يحمل لواءها (نيقولا الخامس) باب روما والغرب المسيحى، إلا أننا دوما نجد العراقيل وإذا خضنا معهم فى التفاصيل وجدنا أنفسنا أمام مطلب تعجيزى من روما والغرب، يريدوننا نحن حماة الدين أن نخضع لهم ونتخلى عن معتقداتنا فنصبح رعيا تحت إرادة البابا نيقولا الخامس، ساعتها يهموا لنجدتنا!!

قال ديمتيرويس: ألم يكفهم أننا أعطيناهم امتيازات كنسية على أرض خاضعة لسلطاننا، ودفعنا ثمناً باهظا لقاء هذا، رفضا شعبيا عارماً، واتهاماً بالتفريط فى الدين، إنهم سيدى الإمبراطور يريدون منا الانصياع من دون الالتفات منهم إلى تلك المعارضة الشعبية العارمة، والتى لو استشرت فى الشعب البيزنطى، سيلقى علينا الشعب حينئذ كلمة الكفر، ومن يدرى لعله يسحب منا الغطاء الشرعى لحكم البلاد.

لقد وجد قسطنطين نفسه فى مأزق، إما التنازل عن الدين مقابل إنقاذ القسطنطينية وما يترتب عن ذلك من معارضة شعبية كبيرة، بل ومعارضة كنسية من بطاركته، وإما الوقوف وحيداً فى المعركة من دون حلفاء، وقد تكون النهاية للقسطنطينية وبعد إدارة الأمر فى الرأس اختار قسطنطين التنازل عن الدين لتبقى القسطنطينية وليبقى عرشه.

ولم يجد قسطنطين بدا من التنازل ليضمن حلفاء له فى معركته القادمة مع المسلمين ، وانطلقت البعثات والرسائل من القسطنطينية إلى روما والعكس، وبُذلت مساع دبلوماسية هائلة فى سبيل التوفيق بين الشرق البيزنطى الأرثوذوكسى، والغرب اللاتينى الكاثوليكى، لكن البابا لم يقبل بالتوفيق إلا على شروطه، وقبل قسطنطين مرغما شروط توحيد الكنيستين المجحفة له، بسبب خوفه من العثمانيين، فنزل الإمبراطور عن كبريائه، وطلب النجدة والعون أيا كان الثمن، فأعلن رغبته فى توحيد الكنيستين ، وقبول سيطرة باب روما على بلاده.

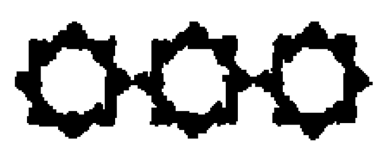
ثم أطلق البابا شروطه، وكان أهمها (أن تعترف بيزنطة بحمل بابا روما لواء المسيحية وفق المذهب الكاثوليكى،وثانيها: أن يعم المذهب الكاثوليكى على الأراضى البيزنطية، وثالثها: وهو أخطرها أن تقام المراسم الدينية فى كنيسة (آياصوفيا) الكنيسة الرسمية الأم للقسطنطينية ، تقام فيها المراسيم وفق الشعائر الكاثوليكية.

وعاد الوفد من روما، وبدأت خطوات التطبيق على الأرض، وانتفض الشعب البيزنطى، الذى يكن عداءً لكنيسة روما الغربية، وبدأت حملة احتجاجات واسعة على طول البلاد وعرضها ، ولم يعبأ بها الإمبراطور ، وكان على رأس المعارضين، قائد قوات الإمبراطورية العام (لوكاس نوتاراس) وقف أمام قسطنطين وقال له: "إننى أفضل أن أشاهد فى ديار البيزنط عمامة الأتراك، على أن

أشاهد القبعة اللاتينية".

وداخل كنيسة (آياصوفيا) الكنيسة الأم للقسطنطينية، التى أخليت من قساوستها وبطركها الكبير (جورج جينادوس) وحتى عمالها، اجتمع الوفدان، وتمت المراسيم داخلها فى يوم (١٢/١٢/١٤٥٢م) وفى الخارج حالة من الهياج والغضب الشعبى، عكرت على من فى الداخل، زهو الحفل، الشعب البيزنطى الآن بدت تلوح أمام عينيه نذر النهاية، نهاية القسطنطينية.

وفى القصر الذى خلا فى هذا اليوم من كبار الوزراء المعارضين لتوحيد الكنيستين، اعتزل الإمبراطور الناس، وقبع فى غرفته رافضاً أية مقابلة، ومضى هذا اليوم على البلاد وقد أحدث صدعاً كبيراً.



الحصار الأول على القسطنطينية

(١٣)

دوت أنباء ما حدث يوم "١٤٥٢/١٢/١٢م" فى كنيسة آياصوفيا بالقسطنطينية، أنحاء أوروبا، وتواترت التبريكات والتهانى من باب روما (نيقولا الخامس) إلى ملوك اللاتين، يهنئهم بانتصار مذهبهم وكنيستهم وزوال سلطان بيزنطة الدينى نهائياً.

وأرفق البابا فى رسائل تهانيه نصحه لأولئك الملوك، بمد يد العون لبيزنطة فى محنتها، بعد أن صارت تحت وصايته، وبدأت تتتاطر الرسائل من ملوك الغرب إلى إمبراطور بيزنطة كسير الجناح، بأن الجميع صار الآن معك ضد الكفرة البرابرة الأتراك المسلمين.

وكان لتلك الأنباء المدوية، وقعاً مغايراً على الأرض العثمانية، فالشعب العثمانى رأى فى ذلك دنو المعركة، وأن بيزنطة أحست بالهزيمة ، فالتجأت إلى مسيحية الغرب لتهب إلى نجدتها.

وداخل القصر السلطانى بالعاصمة أدرنة، رأى السلطان وكبار رجال البلاط، أن ما دفع القسطنطينية لهذا المنحى الخطير، تلك الخطوات الناجحة التى أنجزت على الأرض تجاه فتح المدينة.

ويطلب السلطان محمد الثانى، من وزيره الأول، أن يدعو لعقد اجتماع هام، على مستوى وزراء القبة، ويحضره كبار القادة والعلماء، ليضعهم على هذا الحدث البارز على الأرض.

وفى القاعة الكبيرة بالقصر الهمايونى بالعاصمة أدرنة، جلس تحت قبة الوزارة، الوزراء الأربعة (أحمد كدك باشا – وإسحق باشا – وصاريجه باشا – وافرنسو أوغلو) يتقدمهم الجلوس الصدر الأعظم – جاندرلى خليل باشا – وعلى يمين قبة الوزارة جلس قادة الجيش والأسطول، والحرس والشرطة وعلى الجانب الأيسر للقبة،

والذى يتوسط القاعة الكبيرة فى القصر، جلس علماء البلاط العثمانى من رجال الدين، والقضاة والعلميين، والمؤرخين، ومفكرى البلاد على رأس هؤلاء ألمع الأسماء (الشيخ على البسطامى رئيس القضاة وقاضى العسكر - والمؤرخ التركى الكبير خوجا سعد الدين - وعالم الرياضيات علاء الدين ابن محمد - ومرشد الخاقان الشيخ آق شمس الدين).

وعزفت الموسيقى العسكرية، إيذاناً بقدوم السلطان، وقام الجمع فور بدء العزف، وإن هى إلا لحظات ودخل السلطان محمد الثانى القاعة الكبيرة من الباب الجانبى ، المؤدى لكرسى العرش، والمقابل للقبة التى يجلس تحتها الوزراء الأربعة، وألقى السلطان التحية على الجميع، فور انتهاء العزف، ثم أمرهم بالجلوس.

وخيم على جنبات القاعة الكبيرة صمت مطبق، انتظارا لخطاب السلطان الهام ، والدقيق فى هذه الظروف الحرجة.

وقف السلطان بقامته الطويلة الفارعة، وبجسمه الذى يتخطى الرشاقة فى قليل ، وعلى رأسه عمامة السلطنة الحمراء، والتى يتدلى طرفها من الأعلى فى أناقة، بزيه العسكرى الموشى بالأنواط والنياشين البراقة، وقف أمام المنصة التى يتخذها موضعاً للخطابة، وخلفه يتدلى علم البلاد من سقف القاعة، العلم السلطانى المهيب بألوانه الثلاث الزاهية، الأخضر، والأحمر، ويتوسطهما الأصفر مكتوب عليه بالتركية بلون أزرق براق (العثمانية الإسلامية).

وبدأ السلطان قوله:

(بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم - السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

وبعد: إنه ليس بخاف عنكم ما يدور حولنا من أحداث

متلاحقة، كما لا يخفى عليكم استعدادنا الذى بلغ ذروته الآن لفتح هذه المدينة العتيدة "القسطنطينية" وأنا على ثقة تامة، بصلابة موقفكم وثباتكم، الذى بدا يتجلى فى رحلة الاستعداد الشاقة.

أيها الجمع المبارك، لقد خولكم الشعب، وفوض إليكم أمر الدفاع عن الوطن العزيز ، فكونوا على قدر ما وكلتم به، وأحسبكم كذلك، لقد حلت ساعة الجد، ساعة الحسم، إن أعداءكم الآن قد برزوا لكم بسهامهم المسمومة ونيرانهم المحرقة، فها هى الإمبراطورية التى كانت فى يوم ما حامية المسيحية الشرقية الأرثوذوكسية، ها هى اليوم قد دفعها الخوف والحقد على الإسلام، إلى أن تدوس على مقدساتها، وتتنكر لعقيدتها، لصالح ألد أعدائها فى روما وأوربا (المسيحية الغربية) إنه لمن أعجب مراحل التاريخ تلكم المرحلة، أن يصل خوف الأعداء من الإسلام إلى التخلى عن عقيدتهم، وعن سؤددهم، فليس خافيا على أحد الآن ما يدبرونه.

لقد قبلت بيزنطة بتحالفها مع الغرب كل الغرب، ولو فى ذلك ضياعها على أن تترك هذه المدينة (القسطنطينية) للمسلمين يقيمون فيها العدل والسلام والتراحم"

وقد وصلتنى مقولة القائد – لوكاس نوتاراس – قائدهم حين قال لقسطنطين: "إننى أفضل أن أشاهد فى ديار البيزنط عمامة الأتراك على أن أشاهد القبعة اللاتينية" وها قد شهد شاهد من أهلها.

أيها الجمع المبارك، ليست القسطنطينية هى وحدها من ستحاربون إنها أوروبا الحاقدة المتعصبة، ولا يغرنكم معاهدات الصداقة والوفاق والتى هى بيننا وبين الكثيرين منهم، إنهم يضمرون عداءً لدينكم ويتحينون الفرصة، اللهم إلا القليل المتعقل منهم، ممن يهمهم سعادة الإنسانية أياً كان دينها.

إنه قدر قد اختارنا الله له، أن نسقط صلفهم وجبروتهم، على أسوار تلك المدينة، التى بشرنا الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم أنها لنا، وأنها ستفتح حين قال: "لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش" ومن موقعى هذا، موقع المسئولية تجاه دينى ووطنى، أهيب بقادة البلاد أن يكونوا فى هذه الأيام على أعلى درجات الاستعداد واليقظة والحذر، كما أهيب بعلماء البلاط أن يستنفروا البلاد، لتخف ولا تتثاقل فى الذود عن البلاد والوطن.

معشر الجمع المبارك، ليعد كل منكم إلى مكانه وقد استحضر فى نفسه العزم والإصرار على تحقيق الهدف، ولتكن يد الجميع واحدة، ولتتراص الصفوف وتتوحد الكلمة ولتكن كلمتنا، هى كلمة الله حتى ندرك موعوده – النصر القادم – الذى تبدى لنا فى الأفق القريب، وفقكم الله وسدد خطاكم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وعلى فورهم المجتمعين فى القاعة الكبرى، رجوا جنبات القاعة بالهتاف والتكبير (الله أكبر والعزة لله، الله أكبر والنصر للإسلام) وراح السلطان الشاب يلوح بيديه دونما انقطاع، وهو واقف ليرد التحيات الحارة، الصادرة من الوقوف فى القاعة، يلوحون له فى مشهد حماسى كأنه الالتحام والانصهار، على وحدة الهدف ووحدة المصير وغادر السلطان القاعة، وسط الصياح والتهليل والتكبير، وقد وضع فى رؤوس المجتمعين حراجة اللحظة وحساسيتها.

ثم غادر القاعة وقد ترك فى نفوسهم شعوراً بأن الحرب قد بدأت الآن.

وتمر أيام، وتتجلى فيها تداعيات خطاب السلطان على الأرض، هذا الخطاب الهام الذى حرك الجميع، دعوات فى مساجد المدن

الكبرى، لإلقاء الخطب الجهادية الحماسية، يلقيها علماء البلاط الكبار، على رأسهم – الشيخ آق شمس الدين – والشيخ على البسطامى، والشيخ جلبى زاده، والشيخ سراج الدين الحلبى وآخرين.

وانسحبت الحالة الحماسية الجهادية من مساجد المدن الكبرى، إلى مساجد القرى والنجوع وعلى طول الأراضى العثمانية، وانتقل خطاب السلطان من قاعة القصر إلى بيوتات ودور البسطاء فى المدن والريف، وصار الجميع على قناعة تامة، بأن البلاد قد دخلت الحرب فعلياً.

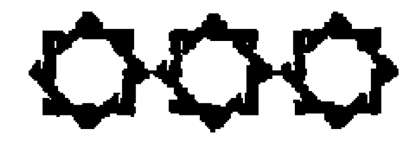
وفى غمرة هذه الأجواء التى عمت البلاد، يصدر السلطان تعليماته بتأمين الجبهة الداخلية، فتنطلق وحدات الإمداد والتموين التابعة للجيش النظامى، لتضخ كميات وفيرة من المعونات الغذائية الهامة فى سائر الولايات وكأنه التمويل الضرورى قبل المعركة.

ويستدعى السلطان محمد الثانى، الشيخ آق شمس الدين، ويفاتحه فيما يدور فى رأسه قائلا: يا شيخ آق لم يبق لنا الآن إلا أن نمسك بنقطة البدء لتكون سببا فى التصعيد.

قال الشيخ آق: أرى جلالتكم وقد عزمتم على شن الحرب سريعاً؟

قال السلطان: التأخير فى شنها بعدما صار ما صار، وتكشفت النوايا غير مجدٍ ، لابد من طرق الحديد وهو ساخن، ومن الآن فصاعدا ، لن نسمح بالتجاوزات التى كنا نتغافل عنها ، سنمسك بأول خرق لهم للهدنة ، لنجعله سبباً للتصعيد وما أكثر الخروقات على طول الحدود، ففى يوم من أيام ديسمبر لعام (١٤٥٢م) اعتدى بعض الجنود البيزنطيين على بعض الجنود الأتراك، الذين كانوا يقومون برعى قطعان من الغنم المخصصة لمؤونة الجيش العثمانى، فاعتبر السلطان محمد الثانى ذلك الاعتداء بمثابة خرق لمعاهدة

كف العدوان بين الطرفين، وعلى فوره أعلن الحرب رسمياً، وتحرك إلى قيادة الجيش بنفسه، وأصدر أوامره سريعاً بالتحرك لمحاصرة القسطنطينية، وتحركت القوات البرية النظامية تحت قيادة (البكلربك / سليمان باشا) وضربت طوقاً من الحصار البرى حول القسطنطينية، وأشرف السلطان بنفسه على تمركز قواته فى النقاط الهامة حول المدينة، وبعد أن اطمأن السلطان لمتانة الطوق، عاد إلى العاصمة أدرنة، ليكمل باقى الاستعدادات لتوجيه الضربة الأخيرة، والحاسمة تجاه القسطنطينية، هدفه وهدف آبائه وأجداده سلاطين آل عثمان ، وهدف كل قائد مسلم وصلته بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم فى فتحها.



الأعداء في قلق

(١٤)

وهكذا أطلق السلطان محمد الثانى، طلقته الأولى فى اتجاه الهدف، حاصر القسطنطينية فى (١٤٥٢/١٢/٢٥م) وعاد إلى عاصمته ليتريث للخطوة القادمة، وداخل المدينة البائسة هاج الناس وماجوا، وانتشرت الشائعات فى أرجائها، كلما عاد المسافرون برا إلى الداخل، داخل مدينتهم، التف الأهالى حولهم، فيروى العائدون عليهم تلك المشاهد المهيبة، حشود عسكرية عثمانية، على طول الصحراء، وعلى مقربة من سور المدينة الحصين.

القوات العثمانية النظامية، تضرب طوقا حول السور الحصين الذى يلف المدينة، وإذا أراد المسافرون النفاذ من البوابات الرئيسية منعهم الجنود البيزنطيون، الذين وضعوا فى حالة تأهب قصوى.

وداخل أسواق المدينة، تلتف الجماهير الغفيرة حول القادم من جهة الحدود، لسماع المزيد من الأنباء المدوية.وبدأت بعد أيام تتأثر البلاد بنبأ الحصار، والشائعات التى ماجت حوله، الأمر الذى دفع مستغلى الأزمات، من كبار التجار توظيف الحالة المضطربة ورفع الأسعار، واكتظت الكنائس بالرواد وسط حالة من الذهول العارم، دفعت حتى من لا يعبأ بالعبادة إلى ارتياد الكنائس، وبدت هناك تجارة رائجة، وسط هذا الضباب المخيف، فأقبل الناس على شراء الصلبان الخشبية، ومجسمات العذراء مريم المصنوعة من حجر الجير.

الخوف الآن تسلل إلى المدينة وانحطت المعنويات فى الداخل وكانت تلك هى ضربة السلطان، التى أراد من خلالها إرباك الجبهة الداخلية للعدو، وبدورها تؤثر تأثيراً مباشراً على صناع القرار فى القصر الإمبراطورى.

ووصلت الضربة الأولى التى سددها السلطان محمد الثانى

لأعدائه، وصلت إلى عقر دار الأعداء، القصر الإمبراطورى (بلاخرناى) فإذا به فى تلك الأيام ، تسوده حالة من الاضطراب والقلق، فقد بدا على رجالاته حالات الذهول والخوف بعد ذلك الحدث، الذى دوت أصداؤه إلى خارج الحدود، لاسيما فى البابوية فى روما.. .. ومن ثمَّ إلى باقى الحلفاء فى أوروبا (المجر، وصربيا، وبلغاريا، وألمانيا، وبولوفيا) وغيرهم ممن فاجأتهم السرعة الخاطفة، التى ضرب فيها السلطان حصاره على المدينة العتيدة.

وانطلقت الرسل والوفود السرية ، من أوروبا لتصب فى القصر الإمبراطور ى، الكل فى شغل وقلق لا على القسطنطينية، لكن على مصيرهم، وكأنهم يشاطرون الإمبراطور مخاوفه وانزعاجه وفى حقيقتهم أتوا للوقوف على تبعات الحدث، الذى قد يجر الجميع إلى مواجهة غير محمودة العواقب، فى ظل هذه القوة المتنامية الصاعدة، التى بيد السلطان الشاب محمد الثانى بن مراد الثانى ، ابن الحادية والعشرين عاماً.

ويجلس الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر، على كرسى العرش، وفوق رأسه المحملة بالهموم والهواجس، يستقر التاج المهيب وإلى جواره مستشاره (إينياس سيلفيوس) فقال له الإمبراطور الحزين بلهجة بائسة:

إننى أستشعر يا إينياس وأنا جالس على كرسى العرش هذا، أننى آخر أباطرة بيزنطة على هذا الكرسى وذاك التاج الذى تتوج به أسلافى وآبائى.

فرد عليه إينياس: لا، لا تقل هذا جلالة الإمبراطور إننا نقتبس منك الثبات فى لحظات الجد.

قال الإمبراطور : يا إينياس ما أشعر به فى داخلى، وما أحسه فى رؤياي التى أراها إذا أخلدت إلى النوم، أننا مشرفون على تصفية

حسابات مع القدر، كم بغت جيوشنا على ممالك العباد فى الأرض، كم أذللنا البشر وحرّقنا الحرث والدور بدعوى سيادة روما العظيمة ، حتى فى لهونا كنا لا نلهى إلا بأدوات البطش، أعيادنا واحتفالاتنا ندفع بالمساجين وبخصومنا فى حلبات الصراع، ليواجهوا الأسود الجائعة، ونحن متلذذون بهذا فكيف سيصفح عنا القدر بعد هذه البشائع، قلت لك يا إينياس إننى أحس أنها محطة تصفية حسابات ، وكان قدرى أن أعيش لألقى عقاب القدر الذى أفلت منه أسلافى بالموت أو بالقتل.

وإذا بإينياس ينشد للصراحة القاسية، حتى لكأنه بدأ يتأثر، ويخشى إينياس أن يبدو إمبراطوره مهتزا أمام قادته، فيفت هذا فى عضدهم.

فقال إينياس: جلالة الإمبراطور إنها سنة الحياة التى دفعنا لخوضها، أن يظل القوى باطشا فإذا أتى عليه الزمن، وهن وتآكل وانفرط عقده، هون عليك ففى عهدك لم نرقسوة ولا بطشا بأحد، بل نرى الصداقات والتحالفات.

وفى حومة تدافع الأحداث ، تقترب التداعيات على الأرض، وفى اتجاه المواجهة التى زاد مع تقاربها، القلق والخوف لا فى القسطنطينية فحسب، بل إلى من يضيرهم سقوطها بالدرجة الأولى، وأول المتضررين بسقوطها (البندقية) تلك الجمهورية التى تعد القسطنطينية أكبر وأهم قاعدة تجارية لها.

فالبضائع والمنتوجات ترد إلى القسطنطينية من أصقاع العالم، لا يجد هذا الوارد كفا كبيراً يحمله، سوى كف البندقية، ذلك أن التجار البنادقة متغلغلون فى القسطنطينية، ولهم جاه وسلطان، وكلمة منذ أمد بعيد وتحديداً يوم أن قام الإمبراطور البيزنطى (الكسيوس كومنينوس) والذى حكم فى الفترة (١٠٨١ –١١١٨م) بمنح التجار البنادقة امتيازات تجارية ضخمة بالقسطنطينية، كان

أهمها حقهم فى امتلاك حى بندقى يقع على خليج القرن الذهبى، وذلك مقابل حماية الإمبراطورية من أعدائها النورمان - القبائل الهمجية النازحة من شرق آسيا.

ومنذ ذلك الوقت وحتى العام (١٢٠٤م) تدفق التجار البنادقة، ثم تبعهم التجار من (بيز، وجنوا) نحو أسواق القسطنطينية، واحتكروا التجارة بها بشكل كامل، وقام البنادقة خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ببناء عدة كنائس خاصة بهم فى القسطنطينية (كنيسة القديسة مريم - كنيسة القديس نيقولا - كنيسة القديس مارك).

وفى ميناء (القرن الذهبى) الميناء الرئيسى للقسطنطينية، كانت ترسو فيه خمس سفن بندقية ، ثلاثة منها سفن تجارية - ذات استيعاب ضخم للحمولة واثنان حربيتان، وكانت هذه السفن قادمة من (طرابيزون) خاوية، ومخطط لها حمل بضائع فى مخازن الميناء الرئيسى، بضائع قد تعاقدت على تصديرها إلى البندقية شركة (القديس مارك) والتى يمتلكها الدوق البندقى (موريس فرانك).

وفى ذات صباح أتى قائد السفينتين الحربيتين المكلفتين حراسة السفن التجارية الثلاث - القبودان / جبريل ترايفيزانو - إلى الريان (الوفيكس دييدو) قائد السفن التجارية الثلاث.

وقال جبريل له: علمت أنك تريدنى لأمر هام؟

قال الوفيكس: لقد ذهبت البارحة إلى قائد ميناء القرن الذهبى، بشأن البضائع التى سنحملها حتى نغادر الميناء إلى البندقية. وإذا به يطلعنى على مرسوم إمبراطورى بمنع تحميل البضائع؟

ويلمح الوفيكس فى وجه صديقه عدم اكتراث.

ويجيبه جبريل: من يعرف الإمبراطور قسطنطين لا يفاجأ

بهكذا مرسوم.

قال جبرييل: ليس بالضبط ، وإنما رجل عسكرى مثلى، يتوقع من الإمبراطور هكذا فعل، في مثل هذه الظروف التى ضرب الأتراك المسلمون فيها حصارا بريا على القسطنطينية، والمساعدات التى وعد بها ، وخاصة من جمهوريتنا لم تصله فلو كنت مكانه لما سلمتك هذه البضائع الآن، كى تبقى سفن ورجال البندقية تشاركه الدفاع عن المدينة.

وصدق حدس القبودان جبرييل ففى كنيسة (القديس مارك) اجتمع الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر، مع سفير البندقية – البايل "جيرولا مينوتو" وجمع غفير من نبلاء البندقية، وحضر الاجتماع ، الأسقف (ليونارد الخيوسى) بطل فكرة توحيد الكنيستين، وتم استدعاء الريان (الوفيكس دييدو) قائد السفن التجارية الثلاث، وكذا القبودان (جبرييل ترايفيزانو) قائد السفينتين الحربيتين، وبعد مداولات وأخذ ورد، أقر المجلس ببقاء السفن الخمسة برجالها، لمهمة الدفاع عن القسطنطينية، بعد موافقة بايل البندقية ومباركته ذلك.



أوروبا خذلت قسطنطين

(١٥)

استهلت القسطنطينية العام الجديد، وهى فى ظل حصار برى شديد، والأيام تمر سريعة وقد يطال الحصار منافذها البحرية، ويطل عام (١٤٥٣م) على البيزنط ، وهم فى أشد حالات الضنك على طول تاريخهم، وفى كل صباح يتلهف قسطنطين قدوم النجدة والغوث من أوروبا التى ضحى بعقيدته، حين وحد الكنيستين لقاء وعد منهم بمساعدته، وإذا به وهو منهمك فى قلقه، يأتيه نبأ يبعث فى وجهه الدم بعد مفارقته، إنها أولى المساعدات، وعلى ضآلتها إلا أن الإمبراطور البائس عدها قطرات تسبق السيل.

إنه الكردينال (إيسدور) مبعوث البابا نيقولا الخامس بابا روما، أتى عبر مضيق الدردنيل، مبحراً صعوداً نحو بحر مرمرة على رأس مائتى مقاتل، تحملهم سفينة شحن حربية ضخمة من طراز (قادس) وتبعته ثمانية سفن من كريت تحمل النبيذ للمحاصرين.

وفى نفس الشهر يناير من عام (١٤٥٣م) يصل إلى القسطنطينية القائد العسكرى الجنوى الشهير (جيوفانى جستيانى) على متن سفينتين حربيتين كبيرتين ، وبرفقته سبعمائة مقاتل – أربعمائة منهم من مدينة جنوا، والباقون من جزيرتى رودس وخيوس، ورحب الإمبراطور ترحيبا حاراً بالقائد جستيانى، ومن فرط التقدير له، عهد إليه بالمسئولية الأولى فى الدفاع عن المدينة، وأصدر مرسوماً بذلك ، الأمر الذى أغضب قائده العام (لوكاس نوتاراس) البيزنطى الأصل، وكأنما الإمبراطور قسطنطين يسدد الآن ضربة انتقامية لقائده لوكاس جراء معارضته الشديدة لتوحيد الكنيستين، ولم ينساها له الإمبراطور قسطنطين حين قال له: "إننى أفضل أن أشاهد فى ديار البيزنط عمامة الأتراك، على أن أشاهد القبعة اللاتينية".

وراح قسطنطين يمنى نفسه بالمزيد من الدعم، ولعل البندقية تلكأت فى إرسال العون بعدما تركت السفن الخمسة بمن عليهم

من الرجال رهن حاجة القسطنطينية، فضلاً عن الجالية البندقية التى تعيش فى القسطنطينية، فقد دفع الخوف على مصير المدينة، البنادقة المقيمين فيها، إلى التطوع لإنقاذها.

ويخرج قسطنطين من قصره برفقة وزيره الأول (جورج فرانتزس) ليشرف بنفسه على سير الأمور على الأرض، وأول ما يذهب، يذهب إلى مقر قيادة القائد الجنوى الجديد (جيوفانى جستيانى).

فبادره قسطنطين قائلا: لقد سلمتك مفتاح المدينة العريقة، حاضرة العالم. قال جستيانى: أنا عبد مطيع ، وخادم مخلص لجلالتكم، وهذا الذى أُسند إلىّ من جلالتكم، لهو شرف عظيم لى ولبلادى ولأهلى.

وتبسم قسطنطين الذى سرته آيات التقدير والإجلال تلك، وقال: أعجبتى جيوفانى، أنت مثال الطيبة التى تتحلى بها بلادكم جنوا، لولا وجود التجار اليهود، ما كانت جنوا تقف الآن فى أزمتنا تلك الوقفة الخجلة، كنا نتمنى من بلادكم ما هو أكثر ، لا أن يأتينى الأبطال مثلك على مسؤولياتهم الخاصة متطوعين؟

قال جيوفانى: صدقت سيدى جلالة الإمبراطور ، لولا وجود التجار اليهود، ما كان موقف حكامنا هكذا، إن هؤلاء لا يهمهم سوى مصالحهم، ومصالحهم اليوم ليست فى القسطنطينية لأنها محاصرة، مصالحهم مع الدولة الفتية الكبيرة، دولة الترك المسلمين، فتجارتهم تجوب تلك الأراضى فى إطار معاهدات بين جنوا والسلطان العثمانى، هم من كان وراءهم.

ودار الحديث بينهما فى التخطيط للمواجهة، وأوضح جيوفانى للإمبراطور، خطورة زحف الأسطول العثمانى صوب ميناء القرن الذهبى عن طريق البسفور، وقلق الإمبراطور وقال: وكيف نحول دون اجتياز الأسطول التركى للبسفور؟

قال جيوفانى: لقد رأيت قطعاً من السلاسل الحديدية الضخمة،

تلك التى تضعونها حواجز، كى لا تدنو السفن من رصيف المرفأ فى أماكن المنع، أرى أن نوصل تلك القطع ببعضها، ونصنع منها سلسلة طويلة، نضعها فى عرض خليج البسفور، فنقطع الطريق على سفن الأسطول التركى نحونا.

وأعجب الإمبراطور بفكرة السلسلة واعتمدها ونفذت بدقة، وفى خطوة مفاجئة وغريبة من نوعها، قد رتب لها قسطنطين سلفا، قام بتسليم قيادة البوابات الأربع للقسطنطينية، لضباط بنادقة كانوا على متن السفينتين الحربيتين البندقيتين، المحجوزتين فى ميناء القرن الذهبى.

القائد (دولفين دولفين) على البوابة (الذهبية) الرئيسية المواجهة للقصر الإمبراطورى.

القائد (كاترين كونتارينى) على بوابة (كريسكا).

القائد (فابروزى كورنر) على بواية (طوب كابى).

القائد (نيقولا موزينجو) على بوابة (البيجية).

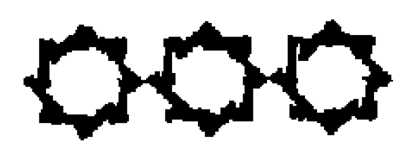
وبقى سور القسطنطينية المنيع، ليُعاد النظر فى حالته، فراح القائد جيوفانى يتفقده، وأعطى قسطنطين تقريرا عن حالته، فهو فى حاجة إلى ترميم ليعود لإحكامه القديم، فكم حال هذا السور عبر الزمان بين المهاجمين والمتحصنين خلفه، ويطلقون عليه (أسوار بيزنطة المنيعة) نعم هى أسوار، لكن أصلها سور مزدوج متقطع فى نقاط عدة، سور خارجى يحاذيه سور داخلى بينهما مسافات غير ثابتة، والسور المزدوج هذا يلف القسطنطينية لفا، من البر ينطلق من نقطة رأسية فى بحر مرمرة إلى البسفور الأعلى، على هيئة ضلعين يقابلهما السور البحرى، المزدوج أيضا، ليحكم الإغلاق على المدينة، فى هيئة شبه مثلث، ضلع بحرى يطل على خليج البسفور، وطرف من بحر مرمرة، وضلعان بريان. والسور البرى يتقطع فى أماكن عدة بنظام دفاعى محسوب، لترسو فى نقاط تقاطعه

البوابات العسكرية، وبين السورين القرى والمدن المزدحمة بالسكان، وفى الفواصل بين القرى والمدن البساتين والمزارع، وبتقطع السور المزدوج هذا صار عدة أسوار كانت بالرغم من الخراب الذى لحق بعض أجزائها منيعة استطاعت أن تدفع عن المدينة الأعداء فى كل العصور.

وبدأت عملية الترميم لسور المدينة الخارجى، وشارك فيها الآلاف من المتطوعين من الأهالى ، ومن الأجانب المقيمين وكان على رأس هؤلاء ، الرهبان والقساوسة ، وقاد عملية الترميم المهندس (جرانت) فكان شعلة دفاقه، لا يكف عن الحراك خلف القائد (جيوفانى) ينفذ بمهارة ودقة واقتدار سد الثغرات ، وترميم الأجزاء المتهرئة من السور، وتعليته فى الأماكن المناسبة.

وفى إحدى جولات قسطنطين، التفقدية للأجزاء المنتهية بعد الترميم والإصلاح، يقول القائد جيوفانى: لن تنسى لك القسطنطينية صنيعك العظيم، ووقفتك النبيلة تلك، لقد أعدت لنا بعملك هذا فى السور مجد آبائنا الأولين، قدس الله روح الإمبراطور العظيم (ثيودوسيوس الثانى) صاحب فكرة السور هذه، والتى حمت بلادنا من المغيرين، وها نحن نعمل عليها.

لكن السور بدون مدافعين عنه، غير ذى جدوى، لذا لم يغب عن بال الداهية جيوفانى هذا، فأنشأ فرقة فيها خليط من الجنويين، والبنادقة، ومن كريت وروما وأسبانيا، والمجر، وبعض المرتزقة من الأتراك ، الذين دفعهم حب المال والحرص على مصالحهم، وعدم الانتماء، دفعهم كل هذا إلى الإنضواء تحت راية أعداء دينهم، ووطنهم، وهم من ذوى النفوس الهابطة، يُستأجرون بقليل من المال لخدمة الأعداء.



سقوط بقع موالية للقسطنطينية

(١٦)

ويطوف السلطان محمد الثانى، على أقاربه وأهله، قبل أن يتهيأ للرحيل، وبعد أنَ ينهى جولته، يعود السلطان إلى جناح سكناه فى القصر، ويلتف حوله أطفاله (جوهر خان طفلته الكبرى، وبايزيد، وقرقور، وجم) ويمضى معهم بقية يومه، ويحل المساء عليه، وتداهمه الهواجس والأحمال الثقيلة ، التى على كاهله، وتنصحه زوجه بالركون إلى الراحة، فهى قد علمت أنه سيغادر القصر عند بزوغ الفجر، فالأعمال الكبيرة فى انتظاره، ويخلد للنوم، فيومه المقبل مشحون بالمهام الجسام.

وفى فجر يومه الجديد،ينطلق السلطان إلى مقر قيادة جيشه بأدرنة، وتبدأ عمليات الإعداد الدقيقة، الدخول فى التفاصيل، بتلك الاجتماعات السرية الهامة، بين السلطان وكبار قادته، اجتماعات فى حجرة مغلقة بمقر القيادة العامة، يطول انعقادها لساعات طوال، تواصلت إلى المساء.

ويتبدى بعد أيام قليلة للعيان، بعضاً مما كان يُخطط له داخل تلك الغرفة، فقد صدرت الأوامر سريعة إلى وحدات، هى من أكفأ رجالات الإنكشارية، مدعومة بوحدات بحرية خفيفة، للاستيلاء على كل الحصون التى تشكل بقع موالاة وتبعية للقسطنطينية فى سهول (تراقيا) على طول الأرض الشاسعة، فى الطريق بين حدود العاصمة العثمانية (أدرنة) والقسطنطينية.

وسقطت قلاع كانت محسوبة على جيش بيزنطة : فى نفس الوقت الذى كانت تتم فيه عمليات هجومية على غرارها، استهدفت المدن التابعة لبيزنطة على البحر الأسود، وبحر مرمرة.

ودوت أنباء تلك الهجمات فى أوساط أوروبا، وها قد تجلت نذر الحرب ساطعة، وسقطت معها كل الاتفاقات والمعاهدات الزائفة المكتوبة على الورق، وشعرت القسطنطينية بدنو الأجل، كما شعرت المدن القريبة منها، والمطلة على البسفور أمامها بنفس

الخطر. فتلك مرحلة فيها الجيش العثمانى المتوهج يلاحق العوائق التى فى طريق الفتح، فها هى (غلطة) التى يُطلق عليها (بيرا) المدينة الواقعة على خليج البسفور قبالة القسطنطينية، والتابعة لجمهورية (جنوا) رأت سقوط القلاع والحصون المترامية حول القسطنطينية هنا وهناك، فنأت بنفسها عن الأحداث واشترت حيادها ، برسالة حملها رسول من قبل حاكم جنوا الكبير، الذى خشى على هذا المرفأ الحيوى على ساحل البسفور من الضياع، فأرسل (أنجيلو جيوفانى لوميللينو) حاكم جنوا، إلى السلطان أنه على الحياد، ولا يهمه من أمر القسطنطينية شيئا، وأنه على استعداد لتقديم العون للسلطان.

وصلت الأخبار إلى قسطنطين الذى استشاط غضباً، وفى محاولة منه لإبداء الملاينة، عله يجد مخرجا من هذا الجحيم، أرسل رسالة إلى السلطان محمد الثانى جاء فيها (من قسطنطين الحادى عشر إمبراطور بيزنطة، إلى السلطان المبجل محمد الثانى سلطان العثمانيين.

لما كان من الجلى أنك تريد الحرب أكثر من السلام، ولما كنت غير مستطيع أن أقنعك بإخلاصى واستعدادى لأن أكون تابعاً لك، لذا فالأمر لله، وسأحول وجهى إلى الله، فإذا كانت إرادته تقضى بأن تصبح هذه المدينة، مدينتك، فلا مرد لقضاء الله وقدره، وأما إذا ألهمك الرغبة فى السلام، فسأكون سعيداً ما بقيت ومع ذلك فإنى أعفيك من كل تعهداتك واتفاقاتك معى، وسأغلق أبواب هذه المدينة، وأدافع عن شعبى على آخر قطرة من دمى).

. ولم تغير الرسالة فى الأمور شيئا، تلقاها السلطان بفتور، وقرأها بعدم اكتراث. وأطلع وزراءه وقواده عليها، ووجدها لحظة مناسبة لإلقاء كلمة أمام رجاله من الصف الأول، كلمة هى أبلغ رد على تلك الرسالة.

قال السلطان: لقد عرض علىّ الإمبراطور البيزنطى السلام، لكننى لا أعتقد فى سلام البيزنطيين. ولا أعطى أهمية كبيرة لكلمة زعماء أوروبا. فهم فى نظرى لا يربطهم مع المسلمين عهد ولا ذمة.

الحشود العثمانية فوق سهل أدرنة

(١٧)

أدرنة العاصمة الكبيرة للعثمانية فى الشطر الأوربي، وفى يوم من أيام مارس من عام (١٤٥٣م) يصل تمام الحشد العسكرى ذروته، ويتوقف فجأة السيل الهادر من القوات النظامية وغير النظامية، ذلك السيل الذى انهمر من شتى ولايات العثمانية، الشطر الآسيوى، الشطر الأوروبى، وفى سهل من السهول الخارجية للمدينة، عسكر عشرات الآلاف من سائر تشكيلات الجيش،

فى المقدمة منها القوات النظامية، حاملة علم البلاد الرسمى، ذو الثلاث ألوان ، الأزرق ، والأصفر، والأحمر، مكتوب فى وسطه الأصفر بالتركية (العثمانية الإسلامية) وتضم القوات النظامية، جميع أسلحة الجيش العثمانى، فى نسق نظامى فائق الدقة والترتيب – سلاح الرماة بأنواعه، سلاح المدفعية، سلاح الهندسة، سلاح العربات، وسلاح الألغام ، وغيرها مما هو مستخدم من أسلحة ومعدات فى الجيش العثمانى، فهو يُعد الجيش النظامى للبلاد، ويضم فى جزء منه جنود من ذوى أصول آسياوية (مغول – روس – تركمان – أرمن – وعرب من الشام والحجاز والعراق) إلى جانب هويته الأساسية (التركية الأناضولية) التى هى السواد الأعظم لجنسه.

ثم قوات الحرس الخاص، المعروفون باسم (جنود العزبان) أولئك الذين يُطلق عليهم – أصحاب العمائم الحمراء – فهم يرتدون العمامة الحمراء على الرأس، إنهم رجال المهمات الخاصة، أصولهم وطنية عريقة – التركية الأناضولية – يحملون البنادق الطويلة فى صفوفهم الأولى، ثم الرماح الطويلة، تلك التى يحملها الجنود من ذوى الدربة العالية، ممن يمتطون ظهر الخيل السريعة، وفى الخلف معداتهم الثقيلة – آلات الكبش قاذفة الحجارة، وقاذفات السهام المشتعلة – وتتحرك حين الزحف فرقهم فى تراص ونظام. كأنها قلعة حمراء

تسير على الأرض، تقف قوات الحرس الخاص تلك فى مكانها من الحشد.

ثم قوات (الحرس العثمانى) المعروفون باسم (الإنكشارية) والذين يُطلق عليهم (جنود القبوقولىَ) أصحاب العمائم البيضاء، إنهم العمود الفقرى للجيش العثمانى، وقوته الرادعة، وهم رجال النسق الثانى فى المعارك، لما بحوزتهم من عتاد ثقيل (مدافع، ومنجنيقات، وقاذفات لهب، وكباش) وهم النخبة الممتازة التى يخشى الخسائر فى صفوفها.

ثم قوات المؤخرة، الفرق المعنية بحمل المؤن والذخائر والسلاح، وألوية الحملة المنوط بها توزيع الثيران التى تجر المعدات والمدافع، وكذا العربات والخيول المدربة، وتُعرف تلك بالقوات الأوربية، ذلك أنها خليط من جنسيات أوربية، انخرطت فى الجيش.

ويمر السلطان محمد الثانى، ومعه كبار قادته على الطريق الرئيسى، الذى يطل على تلك الحشود العسكرية الضخمة والتى تقدر بأكثر من مائة وعشرين ألفاً بكامل عدتهم، يمر الموكب السلطانى متفقداً ترتيب الحشد الطويل، الذى هو فى حالة استعداد للتحرك، ويقطع الموكب أميالاً فى هذا السهل الفسيح، الذى عج بالجنود والمعدات، فحوّلوا سكون صحرائه إلى صخب وضجيج، وليس هذا كل الجيش، فهناك أكثر من ثلاثين ألفاً، يضربون حصاراً على القسطنطينية، فضلا عن القوات البحرية، وقوات الأمن الداخلى.

هذه الحشود الكبيرة هى قوام الجيش العثمانى، الجيش الذى صار حماسه للقتال الآن عظيماً، فرجاله يعتقدون أنهم يؤدون مهمة سامية فى الحياة، للذود عن أمتهم قاطبة، لا الترك فحسب، إنما للعالم الإسلامى كله عربه وعجمه جيش يرقب النصر الذى وعد المؤمنون به، وأن من بين هذا الجيش عدد كبير من الملات ، أى القضاة، والمشايخ والعلماء، والدراويش، يقوون روح الجهاد،

والحماس فى الجنود، ولقد استصحبهم السلطان على عمد، لا لاستغلالهم فقط فى سبيل إنهاض القوى المعنوية للجنود، ولكن تبركا بهم، وتيمنا بصحبتهم، ولحث الجنود على الثبات.

وفى ساعة متأخرة مساء الثانى والعشرين من مارس (١٤٥٣م) شهدت خيمة القيادة فوق سهل أدرنة، اجتماع ساعة الصفر، حضر الاجتماع – الصدر الأعظم جاندرلى خليل باشا – برفقة الوزراء الأربعة (أحمد كدك باشا، اسحق باشا، صاريجه باشا، أفرنسوا أوغلو) كما حضر مفتى الديار الشيخ آق شمس الدين، والشيخ على البسطامى قاضى العسكر، كما حضر أيضا القائد العام للقوات العثمانية – البكلر بك/ تورخان باشا – وقائد الإنكشارية – سنجق أول/ عمر بن طرخان – وقائد العزبان الحرس الخاص – سنجق أول فيروز بن محمد بك – وغاب عن الاجتماع، القائد العام للبحرية العثمانية – قبودان داريا/ بلطه أوغلو – لوجوده على رأس قواته الآن فى ميناء غاليبولى وغاب كذلك قائد القوات النظامية – بكلر بك/ سليمان باشا – فهو الآن على رأس قواته المنوط بها حصار المدينة بريا.

وبدأ السلطان حديثه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد/ ها قد جاءت اللحظات الحاسمة التى تنتظرونها، ها قد جاءت ساعة الحسم، فماذا أنتم فاعلون؟

إن مصير أمتكم الإسلامية، لا مصير الشعب التركى وحده فى أيديكم. أنتم الآن جنود لله على الأرض. تمضون إلى غاية ترضيه، ويرجوها منكم، اجعلوا النصر، أو الشهادة نصب أعينكم، وليكن الشيطان وقرينه الخوف، خلف ظهوركم.

إن الملائكة الآن تصف صفوفها لتشارككم الغزو، فكونوا على قدر المهام.

ثم أطرق السلطان صمتا للحظات، يلتقط أنفاساً،وسط هذا الجو المفعم بروح الحماس، وتحديد المصير، والكل ينظر إلى السلطان الشاب، وهو واقف أمام الطاولة التى تعلوها المشاعل، لتنير عتمة الليل البهيم ، فى هذا المكان الساكن من سهل أدرنة، يقف أمامهم بزيه العسكرى الأنيق، تتلألأ النياشين على صدره.

وعاود القول: بعون الله تعالى، ستتحرك قواتنا مع ظهور أول ضوء ناحية الطريق المعبد للعربات، وعلى أجنابه لباقى القوات، تلك هى إشارة البدء لكم، وقد أخبر – القبودان/ بلطه أوغلوا – فى ميناء غاليبولى بساعة التحرك لذا هو ليس معنا، فرجاله البواسل ، رجال أسطولكم العظيم ، سيتحركون فى نفس الساعة.

كما أُبلغ (البكلر بك – سليمان باشا) قائد القوات النظامية التى تضرب حصاراً بريا على القسطنطينية منذ (ديسمبر ١٤٥٢م) أبلغ بموعد تحرككم هذا ، ليفسح لكم فرجات فى طوقه، لنضيق عليهم حلقة الحصار البرى من كل جهة تطال فيها مدفعيتنا قلب مدينتهم، لا أسوارها فحسب.

سنصلى الفجر سويا هنا، وننتظر حتى يبزغ أول ضوء، ثم ننطلق بعون من الله، كونوا على ثقة من النصر، واعلموا أن الله ليس مضيعاً جهداً عظيماً بذلتموه، وهو القائل فى محكم كتابه ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١).

رعاكم الله، وسدد خطاكم، وبارك عملكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



(١) سورة العنكبوت الآية ٦٩ .

طوق الحصار الثاني
على القسطنطينية

(١٨)

وأُقيمت الصلاة، فكان لكل جماعة كبيرة شيخ من القضاة يصلى بهم أماماً، وبعد أن فرغ الجيش المؤمن من الصلاة، وبعد أن بدا النور، نور الصباح فى الاشراق والبزوغ، أعطى السلطان محمد الثانى أوامره للجيش بالتحرك.

وتحرك الجيش الجرار اللجب بأعداده الكبيرة التي وصلت لمائة وعشرين ألفاً، تحرك فى نسق ونظام يرج الأرض رجاً، والناظر إليه من السماء ليرى مربعاً من دون ضلعه الأمامى، هكذا كانت خطة المسير.

وفى مساء الخامس من أبريل (١٤٥٣م/٨٥٧هـ) أى بعد اثنى عشر يوماً من المسير المتواصل، وصل الجيش العثمانى إلى الطوق المضروب من الحصار على القسطنطينية، وذلك الطوق من القوات النظامية المرابطة فى هذا المكان منذ ثلاثة أشهر، كان القائد سليمان باشا قد أعد للقائهم العد اللازم، فتح أكثر من عشرة فرج فى طوقه، كان متفقاً على فعلها سلفا، ضمن خطة تسليم طوق الحصار للجيش العثمانى، ليحدث طوقاً من الحصار أضيق من طوق القوات النظامية، كى تكون أسوار المدينة فى مرمى المدافع.

وتمت العملية فى يسر وسهولة، كأنما الملائكة فى السماء هى من تسير الحشود ، وخطوة فى التخطيط تسلم أخرى، وما خُط على الورق ينفذ على الأرض.

وظهر جيش الأسود البواسل، الجيش العثمانى، ظهر أمام أسوار القسطنطينية ليدنو من هدفه، ويقترب أكثر من حلمه الذى رواده طويلا، اقترب ليلامس الواقع الذى دبر له، ظهر الجيش العثمانى منظماً تنظيماً رائعا، على نسق لا سابق له، وبدت الفرق بجانب

الفرق فى أعلامها، وطبولها، وأبواقها، وموسيقاها وخيلها، ومدافعها. ودواب الحمل الكثيرة العدد.

وينزل السلطان محمد من عربته، ذات الخيول الستة، ليجد الخيول الحرة التى سيمتطيها هو وقادته، ليشير عليهم بأفضل موطن يصلح لاتخاذه مقراً للقيادة ويعدو السلطان الشاب ابن الثالثة والعشرين عاماً، مستبق الجميع، يعدو بفرسه فى ناحية بعينها، حتى إذا اطمأن الوقوف قال: أيها الرفاق، إن هذا المكان هو أنسب المواطن التى أراها صالحة لإدارة المعركة، فهو قريب من ميناء القرن الذهبى، فيمكننى اللحوق بالأسطول القادم، وهو قريب أيضاً من قواتى البرية ومدفعيتى، فضلاً عن قربه من رأس الهدف، البوابة الرئيسية للقسطنطينية (بوابة القرن الذهبى) أو ما تعرف بباب القديس رومانوس.

ودرس السلطان محمد الثانى، حالة الأسوار وقوتها، من القرن الذهبى حتى بحر مرمرة بنفسه، كى يكشف عن نقاط الضعف فيها، والتى يمكنه النفاذ منها، وعلى ضوء هذا الكشف الميدانى، تقرر إعادة تنظيم باقى قوات الجيش، تنظيماً يلائم ما استجد من معلومات.

وداخل السرادق الكبير، الذى أعده السلطان مقراً لقيادة المعركة، رسم صورة للجبهة رسما جلياً، أسند فيه المهام العليا، لا للقادة العسكريين، بل للوزراء، لعلمه أن قيادتهم للمعركة تفوق قيادة العسكريين لها، فهم قد جمعوا علوم الحرب والإدارة والتخطيط.

وبعد أن أتم السلطان كامل استعداده، كتب لإمبراطور بيزنطة قائلا (تحية وسلاماً إلى الإمبراطور المبجل، قسطنطين الحادى عشر، وبعد: لقد صارت الأمور بين دولتينا إلى ما صارت إليه، لقد خرجت بلادى بقوتها كاملة. والتفت حول سور مدينتكم. وكذا

انتفضت بلادكم واستنفرت قوتها خلف السور دفاعاً عن المدينة، حتى لكأن سور القسطنطينية الآن يحبس أنفاسه لما هو آت، إزهاق لأرواح أبرياء كثر، تدمير لمدينة هى من حواضر العالم المتمدن، لذا أدعوك لتنظر بروية وهدوء، لا إلى عرشكم العظيم الشامخ، ومجدكم التليد الأبى، ولا إلى القصور الرائعة التى حولك والجنان، أن تنظر إلى الضحايا من شعبك، وجندك، ورجالك، وضيوف مدينتكم العظيمة الذين يرقبون الخطر والموت فى كل جانب، كما دعوت نفسى قبلك إلى هذا، فنظرت إلى مصير الجنود الذين تركوا خلفهم أسراً تنتظر عودتهم سالمين.

أيها الإمبراطور المبجل، إنها دعوة إلى السلام، تحقن دماء الأبرياء، فإن سلمت لى المدينة من دون قتال عصمت نفسك، وبقيت فى عزك إمبراطوراً ضمن سلطاننا، بعهد وميثاق يحفظ لك سؤددك، وكرامتك وحقوق شعبك، وحرية اعتقادهم، وإنكم لتعلمون جيد العلم أن بلادنا لم ترد على قتل الأتراك فى شوارع القسطنطينية، بقتل البيزنطيين فى أدرنة وبورصة، ولم نفعل ذلك لأن ديننا يحرمه وقد قال الله تعالى فى محكم آيات الذكر ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ وإنكم لتعلمون كذلك، كم هم كثر من تركوا أوطانهم فى أوروبا، وارتضوا العيش بيننا ، وإنكم لتعلمون أن شطرا كبيراً من جيشى، هم من أصول وجنسيات أوربية ، وآساوية غير التركية الأناضولية.

فكيف بنا إذا تسلمنا مدينتكم، لن يجدوا منا معاملة غير التى نعامل بها الأجناس الأخرى بدياناتها فى أرضنا، فاجنح إلى السلام وأنت مطمئن، وسلم لى هذه المدينة تحقن الدماء بذلك، وإذا فعلت فلن يكون فعلك تحت تأثير التهديد وإنما سيكون تحت رؤية الواقع بعقل وبصيرة.

وسلام عليكم، وعلى شعبكم العظيم

السلطان العثمانى/ **محمد الثانى بن مراد الثانى)**

وأتى الرد عليها سريعا، أتى وهو يحمل غضبا وحقداً على المسلمين الأتراك (من قسطنطين الحادى عشر، إمبراطور بيزنطة، وحامى المسيحية، إلى سَلطان الأتراك المسلمين، السلطان محمد الثانى.

تحية وسلاماً، لكم ولشعبكم العظيم، وصلتنى رسالتكم، وكم أحزننى ما فيها، إذا كنت تريدنى استسلم وأدع لك المدينة من دون قتال، تكون قد أخطأت التقدير، فأنا سليل (آل باليوغولوس) سليل ملوك روما العظام أصحاب القداسة والهالة، وأحمل مجداً تليداً لا أفراط فيه بهذه الطريقة، لو أردتم أنتم أن تحقنوا الدماء كما تقولون، فلتسحبوا قواتكم، وتفكوا حصاركم لنا، أما القسطنطينية فلن أسلمها من دون قتال، وسنقاتل فيها لآخر قطرة دم، إن شعبى وكلنى الدفاع عنها، ولن أتوانى فى مهمتى، وسلام منى إليكم.

قسطنطين الحادى عشر إمبراطور بيزنطة)

وبعد أن قرأ السلطان رسالة الإمبراطور ، قال لمن حوله: اللهم قد بلغت، اللهم فاشهد، لقد أسمعتهم صوت الحكمة، وصوت العقل، وصوت السلام، إنهم مصرون على أن نسمعهم صوت الحرب، وتلك إرادة الله، وقدره لنا.

وأعطى السلطان أوامره للوزراء قادة الميدان، أن يبدأوا القصف المكثف على أسوار المدينة، قصف بالطلقات الثقيلة، وبالأحجار الكبيرة، وبكرات النيران تلك التى تطلقها آلات الكباش القاذفة، وإن هى إلا لحظات، وقبل أن تهتز الأرض، صاح الجيش الجرار الملتف حول المدينة فور وصول الأوامر إلى آخره، صيحة رجل واحد –الله أكبر . الله أكبر. الله أكبر– وإذا بالقصف الرهيب يرج

الأرض ويخطف الأسماع، والغبار الكثيف يلف الميدان لفاً كأنها سحب السماء لامست الأرض.

هاهم بواسل القوات النظامية، وقوات الإنكشارية، وقوات العزبان، يمطرون القسطنطينية بالقصف المتوالى من كل ناحية، عدا ناحية الميناء الأمامية، ميناء القرن الذهبى؛ لتعذر نصب المدافع هناك، فهى محمية بالسلسلة الحديدية التى تحول دون دخول السفن العثمانية. ميناء القرن الذهبى، ومحمية أيضاً تلك الناحية بالأسطول البيزنطى الراسى فى الميناء، ويشهد القصف ذروته عدا تلك المنطقة، التى تُركت لتكون هدفا للأسطول العثمانى، الذى هو الآن فى طريقه إليها.

وينطلق السلطان محمد الثانى مسرعاً، ومعه المرافقين على الخيول السريعة، صوب شاطئ ليكوس، الشاطئ الذى اختار السلطان مقر قيادة المعركة بالقرب منه ، فالخطة الزمنية محكمة التوقيت.

فها هو الأسطول العثمانى، قد تبدى له فى أفق خليج البسفور، آتيا من بحر مرمرة يتقدم بأشرعته الضخمة، ومجاديفه الطويلة التى تعبُ الماء عباً، وأعلامه الخفاقة ترفرف فى الأعلى، ها هو أسطول البلاد، يمخر عباب البحر ليدخل ساحة الوغى.

ثلاثمائة سفينة مختلفة التسليح والأنواع، تحمل فوق متونها ثلاثون ألفا من جنود البحرية وغيرهم، قدموا من مقر قيادة الأسطول، فى ميناء غاليبولى فى بحر مرمرة.

وتقترب إحدى سفن القيادة من الشاطئ، كما هو مقرر لها، لتقل السلطان محمد الثانى ومرافقيه. وترسل بزورق خفيف، ليقلها حتى يصل إلى السفينة. ويصعد على متنها، وتتحرك ولكن ببطء ليدفع السلطان بالسفن المحملة بالمدافع إلى الأمام، صوب ميناء

القرن الذهبى، ليضرب الحصار البحرى على أهم نقطة فى المدينة، والتى لو انشغل البيزنط فيها، لأمكن للقوات البرية المحاصرة للأجناب ، أن تخترق السور وتنفذ إلى القسطنطينية.

الساعات حرجة والوضع على أشده، وسكان القسطنطينية يحبسون أنفاسهم ، فقد بدت بوادر المصير تتجلى، رويدا رويدا.



ضربة بحرية موجعة

(١٩)

أصدر قسطنطين أوامره، بتسليم الريان (الوفيكس ديدون) ريان السفن الثلاثة البندقية المحتجَزة، قيادة ميناء القرن الذهبى، كما أسند إلى المهندس البحرى الجنوى (بارتولوميوسوليجو) قيادةالأسطول البيزنطى، الراسى فى ميناء القرن الذهبى، والمؤلف من مائة وعشرين سفينة متعددة الجنسيات، بيد أنها كلها منضوية تحت لواء بيزنطة (القسطنطينية) وهذه السفن من ذوات الأشرع الكبيرة ومن أحدث الطرازات، ومزودة بمدافع عالية التصويب،وفوق متونها بحارة مقاتلون من أمهر مقاتلى البحر فى هذا الزمان، ورغم تفوق الأسطول العثمانى عليه عدداً، إلا أن الأسطول البيزنطى ذا قدرة قتالية عالية فى البحر، وأسند كذلك إلى قائد هذا الأسطول، قيادة السفن العشرة المنوط بها حماية السلسلة، تلك التى أغلقت مضيق البسفور فى وجه الملاحة لإعاقة الأسطول العثمانى، طرف السلسلة من القسطنطينية غرباً، والطرف الشرقى عن ضاحية (بيرا) المستعمرة الجنوية التى هادنت السلطان، وأعلنت حيادها أثناء حملته على البقع الموالية ، إلا أنها عادت وانقلبت على وعدها وعهدها وراسلت القسطنطينية سراً !!!.

وبدت تلوح فى الأفق للأسطول العثمانى، رايات ميناء القرن الذهبى، الذى يحبس أنفاسه الآن، ويقترب هذا الأسطول اللجب المتنوع فى السير، فمن تُسيره الرياح عبر الأشرعة، ومن تُسيره المجاديف الطويلة التى يمسك بمقابضها من داخل السفن، ذو البأس من الرجال الأشداء، وتنوعت سفنه فى مهامها (بارانداريا) لحمل المدافع والمعدات الثقيلة، و(قادس) سفن قاذفة بها فوهات مدافع و(فيوست) تلك التى تعمل بالمجاديف وهى لحمل الجنود، و(شينية) ذات الأبراج والقلاع للقتال البحرى، و(برجانتينا) لحمل الأحجار

الكبيرة وألواح الخشب، وغيرهذا من سفن حمل الثيران والدواب.

وحول سفينة السلطان محمد الثانى، سفينة القيادة العليا، تحوم القوارب الخفيفة لتنطلق فى كل اتجاه، مبلغة أوامر السلطان، ولتكون حلقة الوصل بين سفينة السلطان وسفينة قائد الأسطول العثمانى (القبودان داريا/ بلطه أوغلوا) ودنا الأسطول من القرن الذهبى، وحالت السلسلة الضخمة دون اقتراب الأسطول أكثر، فأصدر السلطان أوامره لسفن القذف أن ترمى بحممها، وبالأحجار الكبيرة على السفن المحتمية خلف السلسلة، سفن الأعداء.

وتحول سكون المكان إلى دوى انفجارات عالية، وصيحات تكبير (الله أكبر ، الله أكبر) وضربت فرق العزف على متن الأرمادا التركى، الطبول، والدفوف.

وعُزفت موسيقى الهجوم، لكن سفن الأعداء فى الميناء لم تتضرر كثيراً من هذا القذف، لبعد المسافة، كما أنها شرعت كذلك فى التقهقر، كى لا يطالها القذائف ويخشى السلطان من انجرار أسطوله خلف تقهرقرها، فيصيح منادياً للقوارب الخفيفة من حول سفينته لتبلغ عنه: "لا تتقدموا، قفوا مكانكم، سددوا الرمى لو دنوتم منهم طالتكم مدافعهم التى على الأجناب فى البر، شاطئ الأعداء يرقبكم".

فبينما السلطان منهمك شطر الميناء، إذا بخبر يأتيه من الخلف، يربك حساباته ، فقد لاحت فى أفق الخليج سفن قادمة من جهة الجنوب، جهة بحر مرمرة، وفى سرعة مذهلة، قام بها رجال القوارب الخفيفة، تم استطلاع الأمر، ووقف السلطان عليه – ثلاثة سفن جنوية كبيرة، تحمل الحبوب، ومؤن وبضائع، فى حماية أربعة سفن جنوية حربية تحمل جنودا، وسلاحا، وذخائر، وهم فى اتجاه ميناء القرن الذهبى، فى محاولة منهم لاختراق الحصار والوصول للقسطنطينية - وعلى فوره السلطان، أصدر أوامره من مكانه،

على مرسى (شاطئ ليكوس) حيث ترسو قطع أسطوله، إلى قائد أسطوله (بلطه أوغلو) بأن يهاجم هذه السفن مباشرة، ويمنعها من الوصول إلى المدينة المحاصرة، والاستيلاء عليها أو تدميرها، وختم السلطان أمره إلى قائده: (إذا لم تنجح فى ذلك فلا ترجع لى حياً).

وتلقى القبودان بلطه أوامر السلطان، وأعد حملة بحرية من مائة وخمسين سفينة وانطلق بسرعة صوب هدفه، السفن العثمانية تسير بالمجاديف، وسفن الأعداء القادمة من جنوا تسير بالأشرعة، وهى متطورة جداً، مائة وخمسون سفينة عثمانية، تهاجم السفن السبعة الجنوية، وتطبق عليها حصاراً، وطلب القبودان بلطه من السفن التسليم، لكنها أبت، فأمطرت سفن العثمانية السفن السبعة بوابل من الرشقات، بيد أن الظروف ساعدت سفن الأعداء، ذات الأشرعة الكبيرة، فانقلب الجو بعد أن كان صحواً، وهاجت الرياح، وصعب على سفن العثمانية من ذوات المجاديف ، مقاومة الريح العاتية، فى الوقت الذى كانت فيه الريح فى صالح الأعداء.

وبسرعة خاطفة، أمكن للسفن السبعة الإبحار، رغم الإصابات التى لحقت بها ، وكان فى انتظارها السفن العشرة المنوط بها حماية السلسلة، وعلى فوره (بارتولوميوسوليجو) قائد أسطول البيزنط، أعطى أوامره، فأرخى البحارة السلسلة سريعاً، وبعد ما مرت السفن الجنوية السبعة.

ارتفعت السلسلة ثانية من القاع، لتغلق البسفور ثانية فى سرعة خاطفة، ووصلت الإمدادات التى كانت تحملها السفن بأعجوبة ميناء القرن الذهبى، واستقبل الإمبراطور قسطنطين بنفسه أبطال السفن الجنوية، وخرجت خلفه الأهالى إلى الميناء تستقبل بحارة السفن الجنوية بالورود والهتاف.

فى هذا الوقت كان السلطان على الساحل، عند وادى ليكوس، يرقب هذه العملية الفاشلة بنظارة الميدان، وقد تملكه

غضب شديد، وفى سرعة خاطفة، استقل السلطان قارباً خفيفاً، وأبحر به كالريح العاصفة، ومعه بعض مرافقيه، صوب سفينة (بلطه أوغلو) سفينة قيادة الأسطول، وعلى متنها وقف القبودان بلطه خائفا مذعوراً أمام السلطان الذى قال له فى حدة وهو ثائر: يا من خنت دين محمد، وقم بخيانتى أيضاً لماذا لم تتمكن من أسر تلك السفن الجنوية السبعة، وتحت قيادتك كل تلك السفن ، ألم تكن تستطيع أن تفعل ذلك بسهولة، وبهدوء تام؟ إذا لم نستطع القيام بأسرهم، فكيف تتوقع أن تقوم بأسر الأسطول الرأسى فى ميناء القسطنطينية؟

قال بلطه أوغلو متلجلجاً: جلالة السلطان، انظر بعينيك، ثم بعدها سوف يمكنك أن تصدق بقلبك بأن ذلك قد حدث، لا تندفع جلالتكم فى غضبك الشديد تجاهى، لقد سمعت جلالتكم أنه قتل على سفينتين فقط مائة وخمسون من المسلمين، وقتل العديد من رجالى على متن السفن الأخرى، وغرقت سفن، وفيما يتعلق بى، فقد حاولت قدر استطاعتى ولذلك – سيدى – فإننى أتوسل إليك أن تغفر لى، وألا تحنق عليَّ.

وتمالك السلطان نفسه وقال له: لن أدعك فى منصبك بعد الساعة، عد إلى أدرنة ولا ترينى وجهك ثانية.

وأقال السلطان محمد الثانى، قائد أسطوله بلطه أوغلو، ووضع مكانه ضابطاً بحرياً ذا مكانة، رقاه إلى رتبة قبودان داريا، وتسلم القبودان داريا الجديد – أحمد جالى – قيادة الأسطول العثمانى.



السفن التركية تسير على اليابسة وصولاً للهدف

(٢٠)

فى صباح الثانى والعشرين من أبريل ١٤٥٣م –٨٥٧هـ، وبعد إخفاق البحرية فى منع سفن الأعداء من خرق الحصار، وَقف السلطان محمد الثانى على ساحل البسفور، وحوله جمع غفير من قادته، محاولا رفع معنوياتهم، وإنسائهم ما حدث البارحة، ليتسنى، لهم المضى قدما فى معركتهم الدائرة، وقف فى ثبات وهدوء، مفتتحا كلامه بقوله تعالى: ﴿ وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (أيها الجمع المبارك، كنا لا نتمناها هكذا بداية، لكنها الأقدار التى تخفى خلف طياتها الحكمة، لعل الله أراد أن تبدأ نعماؤه عليكم بالبلاء، حتى لا يأخذكم العجب والغرور، والزهو، إلى ما لا يحب ويرضى لكم فى هذه الملحمة المباركة.

إنه الدرس الإلهي حين يحمله القدر، الله سبحانه وتعالى يريدنا أيها الرجال، أن ندخل المدينة العظيمة متأدبين متواضعين، ننشر الأمن فيها، لا الفزع والهلع، إنه تعالى يريدكم أن تدخلوها، دخول الصالحين، المتواضعين أمام عليائه، هكذا هو درس معركة الأمس.

وعلى شاطئ ليكوس المطل على البسفور، يقف السلطان حائراً أمام هذا العائق الكبير، الذى حال دون الوصول للهدف، إنها السلسلة التى بددت الأمل بعد أن تبدى، ويحادث السلطان من معه، وهو يشير بيده ناحية البحر، حيث الأسطول القابع فى مكانه قائلا: أترون هذه الأرمادا الضخمة، أترون هذا الأسطول اللجب ، هو الآن حبيس السلسلة الحديدية، ولابد لنا من فعل شىء، لو هجمنا على نقطة التثبيت الثانية فى – بيرا (غلطه) تثبيت السلسلة، نكون وقعنا فى الفخ المنصوب لنا الآن، والذى أعده بإحكام قائد الأسطول البيزنطى (بارتولوميوسوليجو) الجنوى ، ستنهال على سفننا القذائف كالمطر، وكذا ألسنة اللهب، فلما خلوت بنفسى البارحة ،

وأمعنت النظر فى أمر السلسلة، وجدتنى أمام فكرة عجيبة وغريبة؟

فرد عليه قائده العام: وما تلك الفكرة سيدى السلطان؟

قال السلطان: أخشى لو قلتها تظنون بى الجنون؟

قال تورخان باشا القائد العام: حاشا لله، كيف نظن بألمع عقول العصر هذا؟

وتشجع السلطان وقال: ما دامت ثقتكم بعقلى عالية، فسأطرحها عليكم وقولوا بعدها ما تقولوا، تلك الفكرة لم يفعلها قائد قط، على طول معارك التاريخ، بيد أننى واثق فى نجاعتها.

ونظر الحضور بعضهم إلى بعض، وارتسم على الوجوه التهيؤ لسماع ما هو غريب ومذهل، فهذا السلطان الشاب ابن الثالثة والعشرين، ألفوه سابقا سنه، ومتخطيا عصره، ومدركا لظرفه.

قال السلطان: سأُسيّر بعضا من سفن الأسطول القاذفة على البر بين التلال، حتى إذا جاوزت مكان السلسلة الحديدية، عادت إلى البحر، لتهاجم الأسطول الراسى فى الميناء، ولتفتح لنا السلسلة من هناك، ومن ثم يعبر باقى الأسطول، فى الوقت الذى يكون فيه الأسطول البيزنطى، منهمكا فى قتاله مع تلك السفن التى عبرت.

واندهش الحضور، لا من غرابة الفكرة، وإنما من استحالة الوسيلة، كيف ستسير السفن على اليابسة عبر التلال، هذا أمر لم يسمعه أحد عبر معارك التاريخ، فقال فى استغراب قائده العام، وكأنه يحمل رد الجميع: لكن سيدى السلطان لم نعلم من قبل أن سارت السفن على اليابسة!!

قال السلطان: وما العيب فى فعل ما لم يفعله أحد، ليس هناك مستحيل فى معركتنا الدائرة، سترون بأعينكم ما لم تعلموه، أو تسمعوا به، لقد أرسلت فى طلب الرجل الذى لا تعجزه الحيلة ولا تقف غرائب الأمور أمامه.

قال القائد العام: تقصد جلالتكم، المهندس المجرى أوربان؟

قال السلطان: نعم هو أوربان، أوربان رجل المستحيل.

قال القائد العام: لكن سيدى السلطان، أوربان مهندس مدافع ومعادن، كيف له بأمر كهذا؟

قال السلطان: الذى يصنع المدفع العملاق، الذى يدق الآن البوابة الحصينة (باب القديس رومانوس) من هذه المسافة البعيدة، يفعل هكذا فعل.

وحضر أوربان، ولفيف من قادة سلاح الهندسة، وما اعتمر فى الذهن، داخل خيمة القيادة،وضعوه على الورق، وأطلق السلطان على العملية اسم (سفن البرية) والتى بموجبها ستسير ثمانون سفينة بمدافعها بين التلال ثلاثة أميال، تجتاز فيها هذه القوة مكان السلسلة، وكذا الأسطول البيزنطى المتمترس خلفها، ومن ثم تعاود الإبحار ثانية، لتكون أمام البوابة الرئيسية للقسطنطينية.

وما خططه السلطان مع رجاله، صار قيد التنفيذ، فقد تم تسوية الطريق البرى من البسفور إلى نهاية ميناء القرن الذهبى من ناحية الشمال، وجُمعت عشرات الآلاف من الألواح الخشبية المدهونة بالشحم، ورصت على الأرض الممهدة بطريقة يسهل معها انزلاق السفن وجرها، وتحت السفن، وضعت درافيل الخشب، فإذا ما سحبت السفن بواسطة الثيران، دارت كالعجلات تحتها، ليسهل السحب.

وتمركزت على أجناب ألطريق الممتد – لثلاثة أميال – قوات الحراسة اللازمة، خاصة أن هذا الطريق، ملتف حول ميناء غلطه (بيرا) الجنوى، المقابل لفم القرن الذهبى ، وبيرا انقلبت وحنثت بعهدها ، وهى الآن حليفة للقسطنطينية.

وبدأت المعجزة فى التحقق، بدأت بأصعب جزء فى المشروع، حين نقلت السفن على انحدار التلال العامة، وتدخلت الإرادة الإلهية

لإنجاح المشروع، إذ رأى السلطان أن الرياح تسير فى اتجاه سير السفن، فكبر، وصاح قائلاً: أيها الرجال، أفردوا أشرعتكم، كأنكم تسبحون فى الماء، الله يقف إلى جانبكم.

وفعلت الرياح فعلها مع الثيران، والبغال والأبقار، والرجال الأشداء، مع كل هؤلاء الذين يسحبون السفن، وفى هذه اللحظات كان الجيش التركى يكثف القذف على بوابة القديس رومانوس، لإشغال القيادة البيزنطية.

وارتج البر، والبحر فجأة، فى الوقت الذى فيه، صياح وتكبيرات ، ودعوات الآلاف ممن يقومون بسحب السفن على اليابسة، ويحمسهم السلطان وهو بينهم: الله يرعاكم يا جند الإسلام، ها قد هانت المسافة، ولم يبق سوى ربع ميل من الثلاثة أميال.

وفى الجانب الآخر، ترد الإشارات، عبر بعض المارة، فى الشطر المقابل للأعداء ، أنهم شاهدوا ما لا تصدقه العين، حين أتى بعض الفلاحين إلى ضباط المراقبة على الساحل البيزنطى، وأبلغوهم أنهم رأوا سفنا تسير عبر التلال فى الجانب الآخر ويصدر من ناحيتها، صياح وهتاف، وتهليل، فلم يصدقوهم ورموهم بالجنون، وبعد إصرار من الفلاحين الذين راعهم المشهد من بعيد، خرج ضباط المراقبة ومعهم النظارات المقربة، وإذا بهم يرون العجب كل العجب!!

سفن تسبح فوق التلال، وعليها الأعلام العثمانية، وعلى فورهم أبلغوا القائد العام (جوستنيانى) فانطلق إلى أقرب نقطة للملاحظة، ومع بعض مرافقيه، وإذا به يرى نهاية الأمر، نهاية المشروع (مشروع سفن البرية) يرى سفنا تحط بانحدار من اليابسة إلى الماء، وخلفها طابور من السفن على مسافات متقطعة تسير على البر، فقال مندهشا: يا إله السماء والأرض، ما الذى أراه بعينى؟ فقال أحدهم: ما الذى ترى ؟

قال جوستنيانى: انظروا إلى هذه الناحية من التل.

ونظر من معه، وقالوا: إنها سفن تركية ترفع العلم العثمانى، تسير على اليابسة، ثم تحط فى الماء.

قال جوستيانى: إن هذا السلطان الشرس، لهو مصمم لأقصى غاية على تدمير القسطنطينية ، وإلحاق الهزيمة بنا، هيا بنا سريعاً يا رجال، كى نرسل إليه من المدافع ما يقوم بقذفه وهو فى تلك الحالة.

وانطلق جوستيانى ، إلى حيث الإمبراطور المنهمك فى الرد على القذف الشرس على البوابة الرئيسية، فلما رأى الإمبراطور جوستيانى أمامه.

قال متلهفاً: ماذا دهانا فعله، إن هذا القذف الذى نال منا اليوم، لهو الخطر بعينه؟

قال جوستيانى: بل الخطر الحقيقى الآن سيدى الإمبراطور من الناحية العلوية لميناء القرن الذهبى، هناك الخطر الحقيقى.

قال الإمبراطور : أنا لا أخشى خطراً هناك، ما دام (بارتولوميوسوليجو) قائد أسطولنا ، وقائد سفن حراسة السلسلة يرقب كل تحرك خفيف، ودعك من أمر البحر جوستيانى وكن معى هنا ، فالسلسلة المباركة حبست أسطول الأتراك فى مكانه.

وفاجأه جوستيانى: لقد التف عليها السلطان محمد ، وبدا أكثر منا تصميما وعزما ، تصور جلالة الإمبراطور سيَّر سفنه على اليابسة ، واجتازت ثلاثة أميال ، وهو الآن يحط فى أعلى الميناء، فى أضعف نقطة، كنا نستبعد أى تواجد بحرى للأتراك فيها!!

واندهش الإمبراطور واقفهر وجهه: ماذا تقول، سيَّر السفن على اليابسة؟

من قال لك هذا ؟

قال جوستيانى وهو يعتصر ألماً: بل رأيت بعينى ما لا يصدقه

بشر، ولم يُسمع به من قبل فى تاريخ المعارك، إن هذا السلطان الشاب يمتلك إرادة حديدية صلبة، لم أسمع فى حياتى أن قائداً سيًّر السفن على اليابسة؟

وطرق قسطنطين بصره إلى الأرض وهو يقول: ليست إرادته الحديدية، إنما هو القدر الذى يُصفدنى فى الأغلال، القدر هو الذى أرسل إلىّ هذا الغلام، الذى يملأ الإصرار صدره على إخضاعى، وإسقاط عرشى.

ثم صاح قسطنطين فجأة: ليس هذا وقت النواح، وهاج فيمن حوله: أخبروا رجال بارتولوميو أوامرى بسرعة تعقب تلك السفن التى أتت من البر، وحطت فى أعلى الميناء.

ووقع الأسطول البيزنطى فى الفخ، تحرك نحو الثمانين سفينة الآتية من أعلى الميناء، ودارت رحى حرب بحرية عظيمة، بين الثمانين سفينة، والأسطول البيزنطى، وانسل السلطان بعد أن كان يدير المعركة بنفسه، انسل من ميدان القتال ومعه عشرة سفن، توجه بهم صوب حصن ربط السلسلة، وترك الأسطول البيزنطى لقتال السبعين سفينة كى يشغلوه، وما إن وصل حصن الربط، أمر السفن العشرة بقذفه وبضراوة، واستسلم من بالحصن بعدما رأوا الموت، وقتل منه الكثير، ورست السفن على الشاطئ قرب الحصن وكبر الجميع، وداخل الحصن راح رجال الصاعقة يلفون البكرات بسرعة، ووقف السلطان على الشاطئ، يرقب السلسلة وهى تغص إلى القاع وهو يقول: تلك اللعينة هى التى أربكتنا.

وأمر السلطان أن ينفخ حامل البوق بأعلى ما عنده للأسطول، وسمع القبودان أحمد جالى الإشارة، وكبر هو ورجاله، الله أكبر، وعلى فورهم تحركوا صوب الميناء مباشرة، وإذا بمؤخرة الأسطول البيزنطى المنهمك فى قتال السبعين سفينة، تلمح تقدمهم، وبدأت المعركة الكبرى، وكان قد بقى من السفن السبعين، التى

قاتلت ببسالة أربعين سفينة، والباقون دُمروا ومات المئات ، غرق المئات من البواسل ، الذين قدموا أرواحهم فداءا للوطن، ولو تأخر الأسطول العثمانى أكثر من هذا ، لكان مصير بقية السفن إلى سابقاتها.

أرخى الليل سدوله، والمعارك مستعرة فى البحر، وأمام ثبات وضربات الأسطول العثمانى الموجعة، تقهقر الأسطول البيزنطى بعيداً عن شاطئ الميناء، مبتعداً عن خطوط الملامسة مع الأسطول العثمانى، الأمر الذى وضعه بين فكى كماشة دون أن يدرى، وصار الميناء الرئيسى، ميناء القرن الذهبى تحت سيطرة الأسطول العثمانى.

وتوقف القتال بين الطرفين على هذا الوضع، الأسطول العثمانى لا يريد ترك هدفه على الشاطئ، حين يسير خلف الأسطول المنسحب للعمق درءاً للفخوخ والأكمنة، والأسطول البيزنطى المنضوى تحت لوائه سفن من البندقية وجنوا لا يريد استئنافاً للقتال، لوقف نزيف الخسائر، التى لحقت به من تدمير لبعض سفنه ، وقتل مئات الرجال ، وغرق الكثيرين.

الطرفان اكتفيا بهذا الحد من الاشتباك فى تلك الواقعة، وراح السلطان على متن سفينته التى انتقل إليها، يهنئ قادته ورجاله ببوادر النصر، وعلت التكبيرات، ودوت صيحات الجنود الأتراك فوق سفن الأسطول ، ورفرفت أعلام الأتراك خفاقة فوق سوارى السفن.



الوزير الأول يتآمر على سلطانه

(٢١)

بعد أن اطمأن السلطان محمد الثانى، على وضع أسطوله وأن رجاله يسيطرون على البحر، والبر ، فى البحر يطوق أسطوله الأسطول البيزنطى، وعلى البر منطقة الأسوار البحرية على طول شاطئ البسفور فى مرمى مدفعية أسطول الأتراك.

بعد هذا الاطمئنان، عاد مسرعاً إلى مقر قيادته الميدانية، على متن قارب خفيف حط على الشاطئ الأيسر لوادى ليكوس، فى مواجهة باب القديس رومانوس، الباب الرئيسى للقسطنطينية وداخل السرادق الكبير ، الذى أقيم فى حفرة كبيرة ، أسفل الأرض، وكأنها الخندق الواسع ، تفاديا للقذف، وهو أيضاً مقر قيادة منطقة الوسط، تلك المنطقة التى يقودها الصدر الأعظم –جاندرلى خليل باشا – ويدور حوار بين السلطان وجاندرلى، ويلمح السلطان بعد نهاية الحوار، تكرار نفس الآراء التى طالما أغضبت السلطان، آراء انهزامية تراجعية، فيها تردد، لا يصح أن تصدر عمن فى مثل موقع جاندرلى خليل باشا، وبفطنة السلطان راح سريعا يسترجع بعض العبارات، والتى قد يكون وراءها دلالات خطيرة على سير المعارك.

ولم يجد السلطان بداً من استشارة الشيخ آق شمس الدين، والإفضاء إليه بمكنون ما فى الصدر، وإذا بنفس الإحساس تجاه الرجل يحيك فى صدر الشيخ.

فالشيخ آق بسنه المتقدم ، وعلمه ، يحس فى داخله أن الرجل الثانى بعد السلطان – الصدر الأعظم – هو عبء على المعارك لا مبادر للأمام، وقد أخفى الشيخ هذا الإحساس، فلما عرض السلطان عليه أمره، نصح السلطان بفرض رقابة سرية عليه دون أن يشعر بها، وفعل السلطان، حتى إذا كان مساء يوم، وقعت مخابرات السلطان ، على رسالة من الصدر الأعظم ، إلى قسطنطين

وكانت فى غاية السرية، وقعت فى أيدى مخابرات السلطان المندسة، داخل القسطنطينية ، خلف الأسوار وإذا بها.

(جلالة إمبراطور الروم العظيم – قسطنطين الحادى عشر – هذه رسالتى إليك من دون علم السلطان محمد الثانى ، والذى حدا بى لإرسالها ، ليس لأنى شققت عصا الطاعة عنه، فأنا لا أخرج عن طاعته مهما كانت الظروف، بيد أنه اجتهاد شخصى منى، لوقف نزيف الدم بيننا، لذا فأنا ناصحكم ألا تيأسوا من إرسال الرسائل، لا للتهديد، وإنما للمودة، وللسلام على أن تتصاعوا للصلح وفق شروطه ، فيظل ملككم وعرشكم آمن، ونحن من جانبنا، أنا ومن لهم وزن فى القرار ، سنحاول إقناعه بشتى الطرق، العدول عن إسقاط مدينتكم القسطنطينية، فنحن نعلم مغبة هذا العمل ، الذى قد يفتح باباً لا ينسد من العداء بيننا وبين أوروبا.

فلنكن أنا، وجلالتكم. ومن سار نهجنا، عقلاء هذه المرحلة الخطيرة .

مرسله لجلالتكم – الصدر الأعظم للعثمانية – جاندرلى خليل باشا) .

وطوى السلطان وهو فى شدة الأسى والحزن الرسالة، وأخفاها عن الجميع، كى لا تترك أثراً سيئاً فى صفوف القادة، واختلى خارج سرادق القيادة بالشيخ آق شمس الدين ، وأطلعه على الرسالة، ولم يندهش الشيخ كثيراً، وقال: إن هذا الرجل لا يعبأ بما نقول والخوف والهزيمة يملآن قلبه وعقله.

قال السلطان: ماذا ترى يا شيخنا فيما قرأت؟

قال الشيخ آق: هو فى رسالته لم يُلمّح بانشقاق، أو خيانة، إنه يريد تجنب الحرب بأى وسيلة، وتصرف بدافع الخوف، فأرسل للإمبراطور من خلف ظهرك.

قال السلطان: لابد من إزاحة هذا الرجل من مكانه واعتقاله، وبعد الحرب نرى فيه رأياً.

قال الشيخ: لا جلالة السلطان، إزاحته واعتقاله قد يؤلب عليك من يحمل رأيه، وهذا وقت غير مناسب لإثارة الحدث، نريد للمعركة سيراً فى الاتجاه الصحيح نحو العدو، لا تدع هذا الحادث العارض يشق صفنا الموحد الآن.

وفهم السلطان الذكى نصيحة الشيخ، وقام هو بتنفيذها لكن على طريقته الحكيمة، واحتال فى أمر إزاحته، استدعاه فى مقره، وأقنعه أن أفضل نقطة للهجوم من منطقة الوسط التى يترأسها الصدر الأعظم، لذا يرى أن يتولاها هو بنفسه، وسحب منه خاتم الوزير الأول، ليستخدمه هو.

وتحول الصدر الأعظم بين عشية وضحاها، من المواجهة إلى المؤخرة، من دون أن يبدى له السلطان أى سبب، أو حتى يذكر له شيئا، فالسلطان قد أخفى الرسالة، ولم يطلع عليها سواه والشيخ آق.

هكذا تجلت حكمة السلطان، حين امتثل للشورى، وألجم غضبه، فهو لا يريد عائقاً، أمام هدفه الكبير، فتح القسطنطينية.

۞۞۞

قتال حتى الموت

(٢٢)

وفى داخل المدينة الحزينة – القسطنطينية – أجواء تشى بنذر هزيمة مقبلة، فالهواء القادم عبر البسفور، وعبر الأسوار، يحمل رائحة الأتراك المسلمين، وكلما مر الوقت على أهلى المدينة، فى ظل الحصار الخانق، قلت المؤن، وشح الغذاء، وشعر الجميع بتقاعس البابوية، وتذكر الروم البيزنطيون فى تلك اللحظات، ما كان قد نسوه منذ قرون من أساطير، أتى أوانها، خاصة تلك الأسطورة الشهيرة القائلة "إن مدينتهم ستسقط فى عهد إمبراطور من آل باليوغولس ستسقط فى يد الترك، ولن يرضى لها الرب نهاية، سيهبط ملاك من السماء – الملاك الأزرق شاهراً سيفه، ليقوم بتسليمه إلى أحد البيزنطيين البسطاء من أجل تحرير المدينة، وستتحرر المدينة".

لم يبق للمحاصرين فى المدينة، سوى هذا الملاذ الروحى، استحضار هذه الروايات القديمة، وتتواصل الأنباء الحزينة تترا ترد وسط دوى الانفجارات الضخمة، والقذف المتوالى بين الطرفين، قذف المدافع العثمانية، وكذا السفن على الأسوار، وقذف المدافع البيزنطية من فوق التلال الكائنة خلف الأسوار، على العثمانيين.

وبدأت محاولات الاختراق على الأرض، ففى مساء (١٤٥٣/٥/٧م) اندفعت قوات برية فى ستر الظلام صوب البوابة الرئيسية (القديس رومانوس) ودارت رحى معركة ضارية بين قوات النخبة العثمانية والمدافعين البيزنطيين، وبجهد جهيد تمكن البيزنطيون من صد الهجوم، وأوعز هذا الفشل العثمانى إلى السلطان بنقل المزيد من المدافع فى مواجهة البوابة، وأمطروها بوابل من القذائف.

وأتت محاولة أخرى للاختراق، ففى يوم (١٤٥٣/٥/١٢م)

استطاعت مفرزة عثمانية من خيرة قوات العزيان، الوصول إلى أسوار القصر الإمبراطور ى، لكن المدافعين عن القصر كانت جهوزيتهم عالية، فردوا هذا الهجوم بطلقات البنادق، فانسحب رجال العزيان انسحاباً تكتيكيا تلاشيا للخسائر.

واشتعلت الجبهة اشتعالا كبيرا، فى البحر تحول بفعل الرياح الحصار إلى قتال ضار ، وفى البر محاولات لاختراق الأسوار على طول الجبهة، واشتباكات بالبنادق الطويلة لجنود الإنكشارية عند مدخل البوابات الأربع للمدينة، والضغط متواصل على البوابة الرئيسية، وعلى بوابة القصر، وخسائر فى الجانبين.

ولا يرضى السلطان المتحمس للفتح على هكذا سير للمعارك، فحتى الآن لم تُقتحم الأسوار بعد، والوقت يتربص بالسلطان تربص الشامتين، فإذا ما صمدت القسطنطينية أكثر من ذلك، فقد يشجع صمودها الأوربيين على نجدتها.

لذا قرر السلطان الذى لا يتوقف ذهنه المتقد نشاطاً، أن يعثر على وسيلة تمكنه من تجاوز معضلة الأسوار، التى لم تلفح بعد القذائف، والأحجار الضخمة من تحطيمها بشكل يؤدى لاقتحام الجيش العثمانى إلى القسطنطينية، وهنا وقف السلطان مع قادته وقال لهم: إذا كانت عملية الاقتحام عبر تحطيم الأسوار، سيعوزها الوقت، فلتستمر العملية ، ولنشرع فى أخرى لاقتحام الأسوار، وليس سواها تلك التى طرقت ذهنى.

قالوا: وما تلك جلالة السلطان؟

قال السلطان: الأنفاق أسفل السور، نزحف إليهم من تحت أقدامهم.

وهنا قال الوزير صاريجه مندهشاً: بوركت جلالة السلطان، لكنها ليست بالهينة ، فلو أمكننا حفر الأنفاق، وعُثر عليها ، فلن

يكون مصير الجنود سوى الحرق، إنهم برابرة كفرة، ويملكون النار الإغريقية التى يحتفظون بسرها؟

ورد الوزير زغنوس: وما أكثر الاستشهاديين جلالة السلطان فى جيشنا، الذين لا هم لهم سوى ، نيل الشهادة فى سبيل الله.

وبدأت عملية الأنفاق فى يوم (١٤٥٣/٥/١٦م) وإذا بالبيزنطيين يشهدون أمراً مفزعاً جللاً ، طوابير من العزبان تخرج من أسفل السور ، ومعها البنادق الطويلة، فحدث هرج ومرج خلف السور،وعلمت القيادة فى القسطنطينية بهذا الخرق الخطير، فتوجهت قوات مدججة بالسلاح ومعها فرق النار الإغريقية وتعاملوا مع الموقف بقسوة ، أضرموا النار فى فوهات الأنفاق، فحُرق الكثيرون داخلها، ومات خنقاً من لم تطله النيران وتم تصفية من عبر خلف الأسوار بالقتل، وباءت محاولة الأنفاق بالفشل بعدما أزهقت أرواح المئات.

وعلى فوره السلطان، تحول إلى خطة بديلة، قبل أن ينال اليأس والقنوط من جنوده، ففى مساء (١٤٥٣/٥/١٨م) وقف بنفسه على تشييد أعجب ، وأغرب برج، لتسلق الأسوار ، عرفته العسكرية فى زمانها ، برج عملاق أذهل الأعداء فى غرابته، حين أتمه فى ليلة واحدة، يعلو ارتفاعه الحصون الأمامية للأسوار، ودعم هذه الخطوة بأخرى، حين أقام جسراً يمتد من بيرا (غلطه) إلى أقرب نقطة من بوابة (طوب كابى) وتجلت عبقرية المهندس كريستوبول، الذى شيد الجسر من براميل الخمور الفارغة التى أُخذت من السفن الغارقة ، والسفن التى فرّ بحارتها جراء المعارك البحرية،وربطت البراميل بعضها ببعض عبر ألواح خشبية، الأمر الذى أدى إلى ظهور جسر خشبى عائم على الماء ، يكفى عرضه لعبور خمسة من الجنود ، إلى الجانب الآخر فى يسر وسهولة.

۞۞۞

ويحتجب القمر ليلة اكتماله

(٢٣)

خيم على أهالى القسطنطينية شبح السقوط، سقوط المدينة العريقة، بعدما رأوا بأم الأعين ذاك الإصرار . وتلكم الاستماتة فى تسلق السور، عبر البرج الهائل، وفوق الجسر الممتد على الماء، فهم الآن تحت وابل القذف المتواصل ، الذى طوق ضجيجه مدينتهم، ولا تنقطع المشاهد الحية ، وكذا المرويات التى تخترق عمق المدينة، مشاهد الأحجار الضخمة ، التى تنهال على الأسوار لتهدمها، وكرات اللهب الكبيرة ، التى تقذفها آلات الكباش القاذفة، فلا نوم، ولا أمن ، ولا سكينة، وسط هذا الخوف المطبق على المدينة.

وكان أقرب الناس إحساساً بدنو الأجل، هم أولئك الجنود الذين قُدِّر لهم معايشة الحدث الجلل، فقد رأى المقاتلون البيزنطيون، والجنويون، والبنادقة، أناساً يسخرون من الموت ولا يخشونه، رأوه فى محطات عدة، فى محاولة اقتحام بوابة القصر والتى لم يُكتب لها النجاح، والتى راح فيها المئات من خيرة جنود العزبان ، أصحاب العمائم الحمراء، كما رأوه فى محاولة اختراق الثغرات المتهدمة من الأسوار، والتى حصدت كذلك المئات من خيرة جنود الإنكشارية، أصحاب العمائم البيضاء، رأوا ذلك فى محارق الأنفاق الرهيبة، والتى التهمت النيران فيها أعداداً غفيرة من مفارز عالية الدربة.

المقاتل البيزنطى ومن معه من البنادقة والجنوية، رأوا هذا اللون من القتال العنيد، والذى لم يُسمع به من قبل. فراجت الشائعات عن سقوط المدينة فى مرات عدة، وكادت أن تفت فى عضدهم، فتدفعهم لترك مواقعهم الدفاعية، لولا يقظة قادة الحرب فى بيزنطة. هى التى دفعتهم إلى الثبات والمواصلة.

ووسط هذه الأجواء الممتلئة خوفاً وقلقاً . تأتى إشارة السماء جلية واضحة فى تلك الليلة العصيبة، التى فيها ظهرت علامة

عجيبة .ومدهشة ، لتخبر قسطنطين الحادى عشر، أن إمبراطوريته المتغطرسة قد بدا نجمها فى الأفول، ففى الساعة الأولى بعد الغروب، كان القمر مكتملاً بدراً وفجأة تحول إلى جزء صغير كما لو كان قمراً عمره ثلاثة أيام، رغم صفاء الجو من الغيوم والسحب. فكانت السماء كالبلور لا تشوب رؤيتها شائبة.

ومن شرفة القصر، ينظر الإمبراطور إلى السماء وإلى جواره الوزير الأول فى البلاط البيزنطى، الدوق (جورج فرانتزس) الذى شده روع ما رأى.

فقال: يا إلهى، إنها آية فى السماء جلالة الإمبراطور ، القمر صار جزءاً صغيراً ، والسماء صافية، يا للهول!!

والإمبراطور غير متمالك نفسه، قال متلجلجاً: ما الذى يحدث بحق السماء، إنها إشارة من الرب يسوع، يا إله الرحمة رفقا بنا، إنا أبناؤك وعبيدك.

قال جورج فرانتزس: تلك جلالة الإمبراطور ، أول إشارات السماء إلينا، هكذا قالت النبوءة قديماً: "إنه عندما يُحدث القمر علامة فى السماء، ويحتجب، بينما تكون السماء صافية تماماً، ثم يبدأ حجم القمر فى الازدياد، حتى يكون دائرة كاملة، فتلك إشارة السقوط، سقوط القسطنطينية، إن الليلة العجيبة تلك ذكرتنا بنبوءة (الآب يواقيم) حين قال متأسفاً حزيناً: "وا أسفاه عليك تلك المدينة المشيدة فوق تلال سبع، صاحبة الأيدى المبتورة، محرومة من المساعدة" قالها يواقيم فى عز مجد القسطنطينية. قالها فى عنفوان الإمبراطورية. فهو قد أدرك أن لهذا الصعود الطاغى نزول أليم .

وراح قسطنطين يهز رأسه وهو يتأمل كلمات وزيره الأول. ثم قال بعبرات فيها الحسرة. والألم: نعم نزول أليم. صدقت. وهل هناك أكثر من هذا النزول، الأتراك المسلمون البرابرة. يطبقون

علينا من كل ناحية، والعالم حولنا لا يحرك ساكناً.

قال الدوق جورج فرانتزس: حين توجه قسطنطين العظيم (٣٠٦-٣٣٧م) مؤسس القسطنطينية ، ابن القديسة هيلينا ناحية العمود المقدس، الكائن فى ساحة كنيسة أيا صوفيا، وكان على جواده، أشار بيده شرقا ناحية الأناضول؛ حيث الأراضى التركية قائلاً: "إن الشخص الذى سيقضى عليَّ سوف يأتى من هذا الاتجاه" وفى الجانب الآخر للمعركة، كان لتأثير ما حدث فى السماء مغاير ، كانت أجواء فرح وبُشرى نصرٍ قريب فعلى طول الجبهة علت التكبيرات والهتافات ، الدينية ، والوطنية وعلى متون السفن العثمانية كذلك، وجاء دور علماء الدين ، ليعتلوا المرتفعات أينما كانوا ، يخطبون فى الجند خطاب النصر القريب، فها هو القمر قد ألمح لهم بآية فى عنان السماء، أن الله معهم فى حربهم، وأن هذا الخرق الإلهى لهو بشارة النصر القريب.

واقترب السلطان من لحظات الحسم النهائى، فعقد مجلساً حربياً فى ١٤٥٣/٥/٢٧م وحدد للجميع بدقة متناهية المهام، ونظم جيوشه على نسق نادر المثال، وتقرر يوم (١٤٥٣/٥/٢٩م) الموافق "٢٠ جمادى الأول ٨٥٧هـ فجراً" يوم الهجوم الكاسح وأمر قضاة الجيش، ومشايخ البلاط، أن ينادوا فى الجند بالصيام استدعاءاً للصفاء الروحى.

وفى ختام المجلس، أمر السلطان الوزراء والقادة ، أن يمنحوا الجنود من الليلة هذه ، ليلة السابع والعشرين من مايو، راحة تامة، ووقف للعمليات الحربية حتى الليلة القادمة، ليلة الثامن والعشرين، على أن يجمعوا الصيام من الغد ، ورفع المجلس الحربى.

✪✪✪

وسقطت القسطنطينية وقُتل الإمبراطور

(٢٤)

فى صبيحة الثلاثاء الثانى والعشرين من جمادى الأول لعام ٨٥٧هـ، الموافق (١٤٥٣/٥/٢٩م) وبعد صلاة الفجر مباشرة، أعطيت إشارة البدء من السلطان محمد الثانى بن مراد الثانى، إلى الصف الأول، الوزراء والقادة، وعلى فورهم أبلغوا إشارة بدء الهجوم النهائى على طول خطوط المواجهة، وتحول سكون فجر البسفور ، وما حوله إلى هياج، وصياح، وجلبة، دقات طبول الحرب ممزوجة بهتافات وتهليل وتكبير.

واندفع الجيش على الأرض يدكها دكا، حتى غطى الغبار المثار من الأرض كل شىء فى الميدان، وطال عنان السماء ليحجب الرؤية عن الجيش ، الذى يدرك وجهته، من دون الحاجة للرؤية، فهو منطلق إلى هدفه بفعل الجذب لا النظر.

هذه الآلة الحربية الجرارة فى اتجاه أربعة أهداف لدكها، إنها البوابات الأربع، التى حوت أضلع المدينة (البوابة الرئيسية - باب القديس رومانوس - والمعروفة بالبوابة الذهبية - وبوابة البيجية، وبوابة طوب كابى، وبوابة كريسكا) وانتشر وسط الجنود رجال (فرق المهتار) فرق الموسيقى العسكرية، يدقون طبول الحماس، ويطلقون الهتافات، وترتج الأرض تحت البواسل.

والسلطان فى منطقة الوسط، وسط الهجوم، يصيح مبتسماً (هذا وعد الله ورسوله، تقدموا عباد الله، الملائكة تصحبكم فى رحلة النصر).

ها هو الهجوم النهائى على القسطنطينية انطلق، عبر استخدام كافة أساليب القتال اللازمة، المدفعية العثمانية حيثما كانت، أمطرت أسوار المدينة، وبواباتها بآلاف القذائف، آلات الكباش

القاذفة ألقت بحممها الحارقة، آلاف الكرات المشتعلة على خطوط الدفاع. وكان النصيب الأكبر فى التدمير من حظ من نالته قذائف المدفع العملاق – مدفع أوربان – .

واندلعت الحرائق الضخمة على طول الأسوار، وبرز الدخان للعيان. دليلا على الإصابة المباشرة، وكذا فعلت السفن العثمانية التى دنت من الأسوار البحرية على القرن الذهبى.

ودنا المشاة العثمانيون من الأسوار، مشاة الصفة جنود الانكشارية . والعزبان . وعلى فورهم ألقوا بمئات من السلالم التى صنعت من الحبال ، والأخشاب ، على الأسوار ، ورغم ما تعرض له الكثير منهم للموت، وللحرق، إلا أنه الآن فتح باب الاقتحام بهذه الصورة الاستشهادية الرائعة. فقدموا فى أول شرارة للحرب نموذجاً حياً للفداء. والتضحية، أغرى الكثيرين خلفهم لاقتحام الموت سبيلا للنصر.

وإذا بالقوات البيزنطية المدافعة عن المدينة، تجد عدوها فوق رأسها. فطاش صواب المدافعين عن المدينة، فوجهوا أقصى طاقة لهم إلى هذا الهجوم.

فاندفع الجنود نحو الموت اندفاعاً، وينظر السلطان إلى المندفعين إلى النار وهم يتساقطون بالمئات ، متألماً قائلا:" ربنا خفف عنا هول ما نلاقى. وآتنا نصرك الذى وعدت".

ونهمر سيل هادر من العزبان ، والإنكشارية ، فى ملحمة بطولية. يُسقطون أعلام البيزنط ويضعون مكانها الأعلام العثمانية . حتى لم يبق على طول الأسوار التى تطوق القسطنطينية سوى العلم التركى العثمانى. شعار المسلمين القادمين، وأشعلت هذه الخطوة حماس المهاجمين، فانقضوا على نقاط الحراسة المتناثرة خلف الأسوار، غير عابئين بموت، حتى تمكنوا من شج ثغرات كثيرة

وكبيرة فى خطوط المدافعين.

وإذا بخبر له ما بعده فى مسار العمليات الدائرة، الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر رُصد مكانه، فتقدمت فرقة من العزبان بعد أن أمدتها المخابرات العثمانية بمكانه، تقدمت نحوه ، فلما علم الإمبراطور بمقدمهم إليه ، امتطى فرسه وتوجه لملاقاة الفرقة المتجهة إليه من جهة الشمال، وفى الطريق تركه حراسه وأعوانه يلقى مصيره وحده، ونظر يميناً ويساراً وقد خذله رجاله، وقال بعبارة يائسة: "لا مفر من المقدور" ترجل وترك حصانه، وخلع ملابس القيصرة، واستل سيفه فى مواجهة القوة العثمانية التى اقتربت منه هازئة وساخرة، وراح فى هياج قسطنطين يضرب بسيفه فى كل ناحية، والجنود يبتعدون عنه، فهم يريدونه حياً، ولكنه اقترب من حد الإصابة لأحدهم فعاجله هذا الجندى بضربة سيف، أنهت حياته، وخر صريعاً ذليلاً تحت أقدام المسلمين الأتراك.

وسرى النبأ فى جند البيزنط سريان النار فى الهشيم، فانهارت الدفاعات المتبقية، وتبع ذلك تقدم القوات النظامية، وإذا بالسلطان يرى العلم العثمانى، يرفرف فوق قبة البوابة الذهبية البوابة الرئيسية بوابة القديس رومانوس فكبر وقال: "إلى الأمام ، ها هو نصر الله قد أتى" ويتقدم السلطان الصفوف الأولى، ويرسل من يتعقب الإمبراطور ، ويأتيه الخبر الذى تأخر عنه ، لقد قتل، فيأمرهم بإحضار جثته ليرى بنفسه.

ومضى المسلمون الأتراك ، فى تقدمهم من ثلاث جهات إلى مركز المدينة، حيث تقع كنيسة آيا صوفيا، ولم يواجهوا مقاومة. فقد انتهى الأمر، فشوارع القسطنطينية وأزقتها كانت شبه خالية من الناس، فقد التجأ معظمهم إلى كنيسة آياصوفيا والكنائس الأخرى والأديرة، وفتحت البوابة الرئيسية على مصرعيها وتم تأمينها، وعند الظهيرة كان موكب السلطان الفاتح محمد الثانى فى طريقه

إلى الشارع المؤدى إلى كنيسة آياصوفيا، موكب حافل عظيم يتبعه الوزراء على رأسهم (أحمد كذك باشا) أقدمهم والذى حل محل الصدر الأعظم جاندرلى خليل باشا (وزغنوس باشا، واسحق باشا، وصاريجه باشا، وافرنسوا أوغلو) ثم القادة الكبار، والقضاة، والمشايخ، موكب مهيب يسير بالخيول، وعلى جانبى الطريق، اصطف الشعب البيزنطى، والمقيمون من الدول الأوربية، وأمامهم حراس الجيش العثمانى، يحولون بينهم وبين الاقتراب من الموكب، الشعب البيزنطى شغوف برؤية السلطان الذى سمعوا عنه الكثير، ولما اقترب الموكب من الكنيسة، ترجل السلطان وأمر رجاله بالترجل، ثم انحنى على الأرض، وخر ساجداً لله فى خشوع، وأخذ حفنة من تراب الأرض، ووضعها على رأسه خضوعاً لله وشكراً.

وداخل قاعة الكنيسة الضخمة، القاعة الرئيسية والحجرات الملحقة بها، وحتى الممرات الجانبية، احتشد فى خوف وترقب رجالات، وقادة من البلاط البيزنطى، يرقبون مصيرهم القادم، فقد حالت الظروف بينهم وبين الهرب خارج البلاد، إنهم يعلمون أن المسلمين يحترمون حرمات الأماكن المقدسة، فآثروا البقاء هنا، عن أن ينتهى أمرهم بالقتل فى شوارع القسطنطينية.

وأمام باب الكنيسة – آياصوفيا – وقف السلطان الفاتح يتأمل المبنى الضخم وعظمته، لحظات كانت بعمر الزمان طولاً على المحتشدين فى الداخل، ينتظرون كلمة من السلطان تحدد مصيرهم، وتشجع – البطريرك جورج جينادوس – وخرج فى حشد من القساوسة ورجال الكنيسة، وخروا سجداً أمام السلطان، فترجل السلطان نحو كبيرهم جينادوس، وأخذ بيده من الأرض حيث كان ساجداً، وأوقفه، وأمر الآخرين بعدم السجود قائلا لهم: لا بأس، لا سجود إلا لله، وكلنا عبيد لله الواحد.

وارتسمت بسمة وادعة على وجه البطريرك الكبير، فهو غير

مصدق ما سمع، وسار إلى جوار السلطان نحو الداخل، وإذا بحالة من الوجوم والخوف ، والصمت المطبق تريم على قاعة الكنيسة الكبرى ، المحتشد فيها المئات من مسئولى البلاط وموظفيه، ينظرون فى دهاش لموكب السلطان وهو يدخل الكنيسة، ويقترب من المذبح المقدس فيها.

وصاح السلطان فى المحتشدين: أيها الناس، لا تراعوا ولا تخافوا أنتم الآن آمنون فى ذمتنا، فديننا يحرم قتل المستضعفين، ولن تكونوا بعد اليوم مستضعفين ، أنتم أصحاب هذه المدينة العظيمة، مواطنون أحرار فيما تعتقدون، كانت حربنا بيننا وبين من استعبد إرادتكم طغاة (آل باليوغولس) الذى سخّروا مواردكم وموارد العالم حولكم لحسابهم، وأقحموكم فى بغى وعدوان على الضعفاء طيلة ألف عام خلت، فلن تكون القسطنطينية بعد اليوم مصدر قلق وتحريض للحرب على أحد، بل ستكون مدينة سلام وعلم ومحبة، تشع نوراً وهداية للعالم حولها، يمكنكم الآن أن تعودوا إلى مساكنكم ، وحقولكم وأسواقكم آمنين لا تخافون شيئاً.

وانتفض المحتشدون وهم يهللون فرحاً، وابتهاجاً، وهم يتدافعون ناحية السلطان ، والحراس ، يحولون بينهم وبين الاقتراب خوفاً على حياة السلطان، وهم يرددون "فليعش السلطان التركى محمد الثانى، فليحيا السلطان العادل، فليبارك الرب السلطان العظيم.

وخلت الكنيسة إلا من المسلمين من رجالات الصف الأول، والعلماء فى البلاط العثمانى ، وراح السلطان يتفقد الكنيسة وقد بهرته روعتها وجمالها، وحسن نقوشها وألوانها الزاهية وطرازها العريق، وأمر أن تُزال الصور المعلقة ، وتُخلع اللوحات الكبيرة التي عليها صور العذراء والقديسيين، وأمر بإلقاء الماء على الأرض تطهيرا لها ، ولما حان وقت صلاة الظهر، أمر بأن يُرفع الأذان من فوق قبة

الكنيسة،وفى الداخل أُقيمت الصلاة، وصلى السلطان الفاتح محمد الثانى إماماً برجاله صلاة الظهر، إيذاناً منه بتحول كنيسة آيا صوفيا إلى مسجد رئيسى للبلاد.

وبعد الصلاة خرج موكب السلطان من المسجد الجديد، يطوف شوارع المدينة فى رحلة تفقدية، وصولاً لقصر الإمبراطور، وإذا بالسلطان يدخل قصر الإمبراطور وتأخذه رجفة وخشوع، كأنما يتأمل فى تفاهة الدنيا، فأين صاحب هذا القصر الآن، إنه رحل عن الدنيا كلها، وأين ملكه ، قد زال، هذا القصر الذى كان ينبض بالحياة ، ويعج بالزائرين ، ومنه كانت تخرج الأوامر المهيجة للعالم، هو الآن خراب ، فردد السلطان فى تأمل صوفى، وهو يشعر بفناء الدنيا الزائلة، ردد قول الشاعر الفارسى:

العنكبوت تنسج خيوطها فى قصر القياصرة

والبوم يسمع صداه على قباب الأكاسرة

وعثر السلطان الفاتح على قبر الصحابى

(٢٥)

وتجلت عظمة وحكمة السلطان القائد الملهم، السلطان الفاتح محمد الثانى، تجلت فى تعامله مع أهل القسطنطينية، فسلك مسلك التسامح، والرأفة، وأمر جنوده بحسن معاملة الأسرى، والرفقَ بهم، حتى إنه افتدى بماله الخاص عدداً كبيرا من علية القوم ، أمراء اليونان ، ورجال الدين ، واجتمع مع الأساقفة وهدأ من روعهم، وطمأنهم على حقوقهم، فى المحافظة على عقائدهم ، وشرائعهم ، وبيوت عبادتهم ، وأمرهم بتصيب بطريرك جديد، فانتخبوا نفس القديم – جورج جينادوس- وحضر بنفسه حفل تتويج جينادوس ، فى موكب حافل مع الأساقفة إلى مقر السلطان، واستقبله السلطان بحفاوة بالغة، وأكرمه أيما إكرام، وتناول معه الطعام، وتحدث معه فى موضوعات شتى دينية وسياسية واجتماعية.

وخرج البطريرك من لقاء السلطان وقد تغيرت فكرته تماماً عن سلطان العثمانيين وعن الأتراك بل والمسلمين عامة، وشعر أنه أمام سلطان مثقف، صاحب رسالة، وعقيدة دينية راسخة وإنسانية رفيعة، ورجولة مكتملة ، رغم صغر سنه، فهو ابن الثالثة والعشرين عاماً.

ولم يكن الروم أنفسهم أقل تأثراً ودهشة من بطريركهم فقد كانوا يتصورون ، أن القتل العام لابد لاحقهم ، فلم تمض أيام قليلة ، حتى كان الناس يستأنفون حياتهم العادية ، فى اطمئنان وسلام.

واتخذ السلطان من أحد الأديرة ، بوسط المدينة مقراً لإدارة البلاد، ويأتيه ذات صباح فى مقره الجديد رئيس مخابراته –الباش بزق – ومعه الحرس الخاص، وقد أوثقوا رموزاً هامة فى البلاط البيزنطى البائد، تم اعتقالهم من أماكن شتى وهم يشرعون فى الهرب خارج البلاد . على رأس هؤلاء (الدوق/ جورج فرانتزس) الوزير الأول لقسطنطين المقتول، والمؤرخ الكبير (الأمير دوكاس) وزير

الدبلوماسية الأسبق، والأسقف الجنوى (ليونارد الخيوسى) بطل فكرة توحيد الكنيستين، ومستشار قسطنطين (إينياس سيلفيوس) وسفير البندقية لدى القسطنطينية (البايل جيرولامينوتو) والذى كان المحرض الرئيسى ، وهو الذى وراء تطوع وانضمام هذه الأعداد الغفيرة من القادة والنبلاء ، والضباط البنادقة ومشاركتهم فى الحرب ضد العثمانيين.

ويسمع السلطان الفاتح منهم إجابات لأسئلة قد طرحها عليهم، وأمام الوثائق والاعترافات يتبين للسلطان من كان منهم يتخطى كرهه وعداوته للمسلمين حد القول إلى الفعل، فيأمر بإعدام (بايل البندقية/ جيرولامينوتو) ووزير الدبلوماسية (الأمير دوكاس) ويطلق سراح الآخرين.

وفُتحت مدينة القسطنطينية للمسلمين الأتراك، واعتصر الغرب الصليبى ألما لسقوطها فى يد المسلمين، وراحوا يندبون حظهم العاثر على ضياع تلك المدينة، التى هى واحدة من أقدم المدن وأعرقها، المدينة التى بناها اليونانيون وأطلقوا عليها اسم بيزنطة نسبة إلى القائد اليونانى (بيزاس) الذى أشرف على بنائها فى عام (٦٦٠ ق.م) وإذا بهذه المدينة تدخل التاريخ من أوسع أبوابه حين أعلن الإمبراطور الرومانى قسطنطين الكبير نقل عاصمة الإمبراطورية من روما إلى بيزنطة عام (٣٣٠م) وأطلق عليها روما الجديدة ، ثم تغير اسمها ليصبح القسطنطينية نسبة له،وعبر تاريخها الحافل والطويل ، تعرضت المدينة لتسع وعشرين محاولة للاستيلاء عليها ، منذ إنشائها وحتى سقوطها بيد المسلمين، منها ثمانية محاولات لفتحها من قبل المسلمين.

إن سقوط القسطنطينية فى يد المسلمين الأتراك يمثل حقبة من الدهر، فلقد قضى على الدولة البيزنطية الرومية التى عاشت أحد عشر قرنا من الزمان، وانمحى من الوجود منافساً خطيراً للدولة

الرومانية المقدسة فى الغرب (روما).

وانقلبت الأمور رأسا على عقب، فصارت كنيسة آيا صوفيا مسجداً جامعاً للمسلمين، وأصبح طريق الفتح الكبير نحو غربى أوروبا مُعبّدا ممهداً.

وبعد مرور ثلاثة وعشرين يوماً ، قضاها السلطان الفاتح فى القسطنطينية ، والتى اتخذها عاصمة للدولة العثمانية، عاد إلى أدرنة التى عمتها أفراح النصر، بعد أن تهيأت لاستقبال موكب السلطان الذى غادر القسطنطينية فى (١٤٥٣/٦/٢١م) بعد أن أعطى أوامر لجيشه ، ولرجاله بالإسراع فى إزالة آثار الحرب والدمار وإعمار المدينة.

وعلى طول الطريق المؤدى إلى قصر السلطان بأدرنة، حشود بمئات الآلاف تنتظر وصول الموكب، موكب النصر، وما إن رأت الجموع الغفيرة، والتى أتت من شتى ولايات العثمانية، ما إن رأت موكب السلطان الفاتح محمد الثانى بن مراد الثانى، إلا وصاح الجميع مكبرين (**الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر**) فليبارك الله السلطان العظيم، ويرحم الله شهداء المسلمين، ودقت طبول الفرح، وعزفت موسيقى المهتار السلام العثمانى، وارتفعت الرايات ، ويسير السلطان راكبا جواده الأبيض ، وعلى رأسه عمامة السلطنة ، ويسير معه وحوله على الجياد الوزراء وكبار القادة، وبجهد جهيد حط موكبه ، ولا تكف يداه طوال طريقه عن التلويح بالتحية لشعبه المخلص له، ويدخل السلطان قصره، ليجد أمامه زوجه وأولاده وعماته وأقاربه، ويكون اللقاء الحار.

وتصل البشرى، بشرى النصر إلى أرجاء العالم الإسلامى، ويستقبل المسلمون النصر بالفرح والتهليل، ويعم الأمل الشرق الإسلامى، الأمل فى التوحد والنصر على الأعداء، فذاك زمان سادت فيه الفرقة والتشرذم، فجاء هذا النصر ليطرق فى النفوس

الحزينة أمل البعث الإسلامى من جديد، فكانت رسائل السلطان الفاتح موجهة إلى المراكز الإسلامية الهامة، مصر والحجاز ، وبلاد فارس، والهند ، رسائل الفتح المبين ، وأذيعت أنباء النصر على الإمبراطورية الرومية البيزنطية ، من فوق مآذن المساجد، وأقيمت صلوات الشكر لله عز وجل فى جميع أنحاء البلاد الإسلامية واكتست المدن والأمصار حللاً زاهية من الزينات.

فأرسل السلطان الفاتح ، إلى سلطان دولة المماليك الشراكة فى مصر (إينال شاه) قائلا: "إن من أحسن سنن أسلافنا، أنهم مجاهدون فى سبيل الله، لا يخافون فى الله لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون، وعلى تلك الأمنية دائمون ، ممتثلين بقوله تعالى: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ ومتمسكين بقوله على الصلاة والسلام: "من أغبرت قدماه فى سبيل الله، حرمه الله على النار" ولهذا فقد هممنا هذا العام، معتصمين بحبل الله ذى الجلال والإكرام، ومستمسكين بفضل الملك العلام إلى أداء فرض الغزو لفتح مدينة ، مُلئت فجوراً وكفراً، والتى بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهى بكفرها فخراً").

حمل هذه الرسالة، وفد من كبار معاونى السلطان، وكان معهم الهدايا القيمة، وأسيران من قادة البيزنط، واستقبلتهم القاهرة بالزينة والأفراح.

وفى يوم من أيام النصر، يختلى السلطان مع الشيخ آق شمس الدين ، ويدور الحوار بينهما، قال السلطان الفاتح: لقد سمعت من بعض أهل الأثر من الترك ، والبيزنط ، أن سبب اختفاء قبر الصحابى الجليل، الذى كان ضمن حملة الخليفة معاوية بن أبى سفيان (الصحابى أبو أيوب الأنصارى) أنه بعد إصابته فى رأسه إثر سهم من الأعداء، أوصى أصحابه أن يدفنوه فى جوف الليل فى مكان نائى، كى لا يكتشف البيزنطيون مكان قبره، فيعبثوا به

أو يزيلوه، هل صحيح هذا القول يا شيخنا؟ قال الشيخ آق شمس الدين: جلالة السلطان، ليس هذا بقول ، ما نعرفه من خلال الروايات التى أتت عبر رجال الحديث الثقات تقول: "إن الصحابى الجليل أبا أيوب الأنصارى، الذى استضاف النبى صلى الله عليه وسلم فى دار الهجرة عند قدومه الشريف، أنه رضى الله عنه كان فى مقدمة الصفوف حينما أصابه سهم، فى تلك الحملة التى أرسلها الخليفة معاوية فى عام (٤٨هـ =٦٦٨م) فلما أحس بدنو الأجل، أوصى من معه بأن يُدفن قرب أسوار المدينة.

قال السلطان محمد: شيخ آق، ما هو المعنى المقصود وراء وصية كتلك ؟

قال الشيخ آق شمس الدين: يبدو لى جلالة السلطان أن المعنى الذى كان فى رأسه رضوان الله عليه، هو ذاته المعنى الذى امتد لزماننا هذا، أن خلفاء المسلمين، وخاصة العرب منهم كانوا يحرصون تمام الحرص على نيل شرف فتح هذه المدينة، فلعل بشارة النبى بفتحها قد تتحقق على أيدى أحدهم حين قال ﷺ (لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش) فلعل أبا أيوب الأنصارى ، أراد بترك جثمانه هنا، أن يكون محطا ، وعلماً يحث الأمراء على القدوم إليه ، وإكمال ما لم ينجزه رضوان الله تعالى عليه، وها قد أراد الله لك جلالة السلطان أن تكون بشارة النبى ﷺ من نصيبك، ويبقى لنيل الشرف كاملاً العثور على قبر الصحابى ، وإكرام مثواه والصلاة عليه .

وتبسم السلطان ، وقد انتابه الخشوع قائلا: بل هذا ليس كافياً لو عثرت على قبره رضوان الله عليه ، لأقيمن حوله مسجداً عظيماً ، أقوم بنفسى بوضع الحجر له، لكن هذا أمل بعيد المنال، فمكان قبره ليس معروفاً لأحد، فقد طمرت أثره القرون فبيننا وبين وفاته ﷺ أكثر من سبعة قرون.

قال الشيخ آق: لقد تحقق لنا أمل كان أبعد منه جلالة

السلطان، فتح القسطنطينية، والذى حقق لنا هذا لهو قادر على تحقيق ما هو أدنى.

وكأنما الشيخ الجليل المؤمن بقدرة الله ، يحس بقرب الوصول إلى هذا المعلم الحيوى، قبر الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى.

وغادر الشيخ آق شمس الدين قصر السلطان، وعاد إلى منزله، وبعد أن أخلد للراحة بعد صلاة طويلة فى ليله، وإذا به يرى فى المنام الصحابى الجليل أبا أيوب الأنصارى، يراه واقفا باش الوجه، وماض فى شموخ، ثم يقف إلى جوار ركن من السور البحرى، المطل على البوابة الرئيسية للقسطنطينية – بوابة القديس رومانوس – ويلوح بيديه للشيخ أن يأتيه مسرعاً.

وفى الصباح ينطلق الشيخ الورع ، فى فرح وسرور إلى السلطان، الذى شغله الأمر، ويقول للسلطان فى ابتهاج: ما قلته لك تحقق بالأمس جلالة السلطان.

فنظر إليه السلطان مندهشاً قائلاً: ماذا تقصد؟

قال الشيخ: لقد عثرت على مكان قبر الصحابى الجليل.

وفى فرح بالغ وسرور قال السلطان: حقا عثرت على مكانه؟

قال الشيخ: لقد رأيت البارحة أبا أيوب الأنصارى، وهو يقف بجوار السور البحرى ، فى نقطة كنت جلالتكم تقف عندها ساعة الهجوم، ورأيته كأنما اليقين ، وأشد ، يُلوِّح إلىَّ ، بيديه وهو ينادى، إنها رؤيا حق جلالة السلطان.

وعلى فوره أمر السلطان رجاله بالاستعداد للسفر فوراً إلى القسطنطينية ، لأمر عاجل ، ولما وصل السلطان، تقدم أمامه الشيخ آق إلى حيث المكان الذى رآه فى الرؤيا ، ولحظات والقلوب تخفق خشوعاً، والنظر إلى الأرض يشد الجميع، ورجال الهندسة مع السلطان ينتظرون أمر الحفر بعد التحديد، ويشير الشيخ آق شمس الدين مرشد الخاقان إلى موضع فى الأرض بعينه، وينطلق نفر من الهندسة بإزاحة التراب برفق، وإذا بالمفاجأة، قطع من الرخام

تكدست عليها الرمال، وبدقة فى تلك اللحظات الخاشعة التى عاش فيها الحضور زمن الصحابة ، يتم العثور على قطعة رخام مكتوب عليها – قبر الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى – وكبر الحضور ووضع السلطان الذى راح بيديه يزيح التراب الذى تكدس فوق القبر، قرابة ٧٨٤ عاماً منذ وفاته عام (٤٩هـ= ٦٦٩م) حتى اكتشاف القبر عام (٨٥٧هـ =١٤٥٣م) وضع حجر الأساس لبناء مسجد كبير فى هذه البقعة الطاهرة، ووقف خاشعاً أمام القبر وقرأ الفاتحة، وصلى ركعتين هو ومن معه شكراً لله.

ثم قال وكأنما يحدثه الصحابى الجليل: ها أنا ذا، ذاك الأمير الذى بشر النبى – وأشار إلى من معه وقال – وهؤلاء هم الجنود الذين بشر بهم النبى ﷺ وها أنت أيها الصحابى الجليل الآن ترقد فى ديار الإسلام، بعد أن لبينا نداء نبينا صلوات الله وسلامه عليه، وإشارتك المباركة.

رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ

محمد محمد إبراهيم مصطفى
الإسكندرية فى ٢٢ ربيع آخر ١٤٢٩هـ
الموافق ٢٨/٤/٢٠٠٨م

(المراجـــع)

١- القرآن الكريم .

٢- البداية والنهاية – ابن كثير –

٣- موسوعة التاريخ الإسلامى – د / أحمد شلبى –

٤- مقارنة الأديان – د / أحمد شلبى –

٥- موسوعة تاريخ مصر – أحمد حسين –

٦- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية – الشيخ محمد الخضرى –

٧- محنة الإسلام الكبرى – د / مصطفى طه –

٨- الحروب العثمانية الفارسية ... وأثرها فى انحسار المد الإسلامى عن أوروبا – د / محمد عبد اللطيف هريدى –

٩- فكرة التاريخ عند المسلمين – د / قاسم عبده قاسم –

١٠- تاريخ الدولة العثمانية (يلماز أوزتونا – ترجمة . عدنان محمود سليمان) .

١١- أوروبا العصور الوسطى – سعيد عبد الفتاح عاشور-

١٢- قصة الحضارة (ول ديوانت – ترجمة فؤاد أندراوس) .

١٣- ميلاد العصور الوسطى (سانت موسى – ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد) .

١٤- اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها (إدوارد جيبون . ترجمة د / محمد سليم سالم) .

١٥- الحضارة البيزنطية (ستيفن رنسيمان – ترجمة / عبد العزيز توفيق جاويد) .

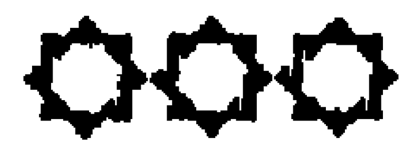
١٦- تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى (هايد – ترجمة أحمد رضا محمد رضا) .

١٧- مذكرات فى تاريخ الدولة البيزنطية (د / عمر كامل توفيق) .


١٨- أبو الفتح . السلطان محمد الثانى وحياته العدنية (على همت الأقسكى)

١٩- محمد الفاتح (د / سالم الرشيدى) .

٢٠- محمد الفاتح (د/ سيد رضوان على) .
٢١- السلطان المجاهد محمد الفاتح (زياد أبو غنيمة) .
٢٢- يوميات الحصار العثمانى – نيقولا بار بارو – (دراسة ، وترجمة ، وتعليق – د/ حاتم عبد الرحمن الطحاوى)
٢٣- فتح القسطنطينية – وسيرة السلطان محمد الفاتح (د/ محمد مصطفى صفوت) .
٢٤- التاريخ من شتى جوانبه – مطالعات فى تاريخ الغرب – (ستيفن أوزمنت ، فرانك تيريز – ترجمة د/ أحمد حمدى محمود) .



فهرس الموضوعات


دار الهناء للتجليد الفني
الشيمي



فى هذا الكتاب

قصة حدث عظيم :

غيَّر تاريخ الإنسانية ، منذ وقع وإلى الآن ، سقوط معقل الروم (القسطنطينية) على يد المسلمين (857هـ - 1453م) وفق نبوءة لرسول الإنسانية ، تحققت بعد ثمانية قرون منذ أطلقها ﷺ ((لتفتحن القسطنطينية ، ولنعم الأمير أميرها ، ولنعم الجيش ذلك الجيش))

فهى قصة جولة حادة فى الصراع بين الإسلام والغرب ، فيها العبرة كل العبرة لصراعنا الدائر مع الغرب اليوم ، وكيف كان المسلمون فى تلك الجولة ، يعدون العدة وهم نفر قليل تتخطفهم الدنيا من وهنهم وهزالهم آنذاك ، بيد أنهم استمسكوا بالأمل ، فما جعلوا من ضعفهم حائلاً يمنعهم الوصول . بنوا الجماعة الإسلامية الأولى فى آسيا (آل عثمان) ، وخطت تلك الجماعة التركية المسلمة ، طريقها بين ثنايا إمبراطوريات عصرها ، وأسقطت أعتاها (بيزنطة الرومية)، بعد مشوار جهادى طويل ، محفوف بالمحن والخطوب ، تحولت فيه تلك الجماعة لدولة شامخة ، وتحول قادتها أثناء المسير لفرسان أشداء ، بلغوا الذروة بذاك الأمير الشاب ، الذى كان الـ...

(السلطان محمد الفاتح) .

وعلى الله قصد السبيل

محمد م...